الأستاذ الدكتور غازي عناية

إساءة الحضارة الرأسماليّة والشيوعيّة إلى الله

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

إساءة الحضارة الرأسمالية والشيوعية

إلى الله



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾

[القصص: ٧٧]



الإهـــداء

إلى مدرستي الأولى، إلى مربيتي التي أرضعتني من لبن تربيتها، وحليب علومها منذ نعومة أظفاري، وطيلة شبابي وإلى أن أوصلتني إلى أولى درجات سلّم الحرم الجامعي؛ فكان لها الفضل الأول عليّ في اغتراف العلم من مناهله، والفضل الأعظم في التأدب بأدب التربية من معينه -

إلى المدرسة السعدية بقلقيلية.



مقدمة الكتاب

اللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا من نعمك العظيمة حيث أرسلت إلينا أفضل رسلك، وأنزلت علينا أشرف كتبك، وشرّعت لنا أفضل شرائع دينك، وجعلتنا من خير أمة أخرجت للناس، وهديتنا إلى معالم دينك الذي ارتضيته لنفسك، ولنا.

اللهم صلّ على محمد؛ طبّ القلوب، ودوائها؛ وعافية الأبدان، وشفائها؛ ونور الأبصار، وضيائها؛ اللهم نسألك بكل إسم هو لك سميت به نفسك أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، وغمومنا. وذكّرنا منه حضارة الإسلام، ومدنيّة العلم، وثقافة التوحيد، وفي خضم تضافر عناصر شرك الرأسماليه، وإلحاد الشيوعية لنبصر ما هو صالح من معالم الحضارة، والمدنيّة، وما هو غير صالح؛ وخاصة في هذا العصر حيث اختلطت المفاهيم الفكرية، والمصطلحات العقدية على الأذهان.

لقد تعاون أنصار حضارات الكفر الرأسمالية، والشيوعية على غزو عقول المسلمين، وحشو أذهان المؤمنين بأفكار عَقَدِيّة مشبوهة، ومفاهيم فكرية خاطئة، ومصطلحات ثقافية مغلوطة، وشعارات حضارية مسمومة، وتعاليم مدنية مهلكة، وعقائد مادية مدمرة؛ ونظريات سياسية، واقتصادية، واجتماعية باطلة.

ومن أجل تمرير دعاويها الباطلة عمدت حضارة الكفر الرأسمالية، والشيوعية إلى خلق تصوّرات عَقَدِيّة، ومبدأية عن الله تتنافى تماماً مع عقائد التوحيد، ومبادىء الإيمان الحقّة، قاصدة خلخلة عقائد المسلمين التوحيدية، ومن ثم إبعادهم عن الله خالقهم، وعن الإسلام دينهم.

ولعل خطورة الغزو الفكري الرأسمالي، والشيوعي تكمن قبل كل شيء في تنوّع أساليبه، وتعدّد طرقه، وتشعب مناهجه، وكثرة أساليبه، وإلى درجة أن أبدع أصحاب هذا الغزو الحضاري في تقديم وجبات كفر مادية حضارية، ومدنيّة شهية إلى نفوس بعض مفكري، ومثقفي الأمة الإسلامية، وحيث قدمت لهم هذه الوجبات على أطباق خبيثة، وغير نظيفة من الاستشراق، والتبشير، والبعثات، والإرساليات التبشيرية، والمنح التعليمية، والمدارس، والمعاهد، والكليات، والجامعات، والجمعيات، والنوادي، والإذاعات، واللاقطات الهوائية، وأجهزة البث التلفزيونية، والفيديو، والكاسيت، والكتب، والمجلات، والجرائد، والدوريات، وغيرها من الوسائل التي استخدموها في غزوهم الحضاري، والمدني، والتي استطاعوا بها أن يكوّنوا جيشاً جراراً من دعاة التغريب الحضاري، والمدني في بلاد المسلمين؛ وذلك لينوب هؤلاء الدعاة عن أسيادهم الغربيين في ترويج عقائدهم، ومبادئهم، وتعاليمهم، ومفاهيمهم، ومصطلحاتهم المسمومة.

ومن أجل تحقيق ذلك أعدت الخطط المحكمة لتوصيل دعاة التغريب في بلاد المسلمين إلى أعلى المناصب الحكومية، والوظائف السياسية، والمراكز الحساسة، والجمعيات الخيرية، والنوادي الرياضية، وأمدهم أسيادهم بأحدث الوسائل العلمية، والمادية، والتكنولوجيّة، وكذلك بالمال؛ وذلك حتى يضمنوا جميعاً تخريب عقول المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، وثقافتهم؛ وحتى يقنعوهم أن ما يصلح لهم هو فقط الذي يرد إليهم من مجتمعات الكفر الرأسمالية، والشيوعية؛ ومن ثم تكون المحصلة النهائية ضمان ولائهم لهم، أي ولاء المسلمين للكفار، فلا تقم لهم بعد ذلك قائمة؛ ومن ثم يكون قد صدق فيهم الحديث الشريف: «لَتَتبِعُنّ سُنَنَ الذينَ من قبلِكُمْ شِبراً بشِبْر؛ وَذِراعاً بذِراع حتى لو دَخَلُوا جُحْرَضَبٍ لاتبعتموهُمْ. قُلْنا: يا رسولَ اللّهِ، اليهودُ، والنصارى؟! قَالَ: فمَنْ!!» رواه مسلم. وفي رواية أخرى: القُذَةَ بالقُذَةِ. أي الشيء القليل؛ والقذة هي الريشة.

لقد انساق دعاة التغريب وراء أسيادهم الغربيين، واقتنعوا بعقائدهم، وأفكارهم، واتخذوا منهم نماذج لهم يقتدون بهم في نشر حضاراتهم، وأفكارهم في بلاد المسلمين، وعلى رأس هؤلاء المستشرق الفرنْسي «لويس ماسينيون» الذي توفي سنة ١٩٦٢م، والوجودي «جون بول سارتر» والعلماني «هواردبيكر»

وغيرهم ممن اقتدى بهم دعاة التغريب كثير.

لقد أخذ كل من هؤلاء المغرّبين ينفث سمومه، وينشر مفاهيم أسياده الحضارية بالسلاح الذي زُوّد به، وبالوسيلة التي ارتضوها له. فهذا عبد العزيز فهمي الذي نادى بإحلال اللغة اللاتينية محل اللغة العربية؛ وهذا سلامة موسى الذي يرى في الرابطة الدينية وقاحة؛ وهذا تشومبي الثقافة العربية يوسف الخال الذي ينادي بتطوير الإسلام، وتغييره.

وهذا محمد أحمد خلف الله الذي ينكر صلاحية الإسلام للحكم، ووصف الله أنه عربي.

وهذا كاتب ياسين الذي وصف المؤذّنين بالكلاب، ووصف المآذن بالصواريخ العقيمة التي لا تنطلق، وغيرهم كثير ممن تتلمذ خاصة على يد المستشرق «لويس ماسينيون» والذي كان يشجع على التصوف المتطرف كوسيلة لهدم الإسلام، وتشويه تعاليمه.

ولتحقيق مآربهم الخبيثة لجأ دعاة التغريب إلى أسلوب آخر يتمثل في استعمال بعض المصطلحات في غير محلها، وإطلاق بعض المفاهيم على غير معانيها؛ ومنها: مفهوما الحضارة، والمدنيّة.

لقد خلطوا بين مفهوميّ الحضارة، والمدنيّة، وجعلوهما بمعنى واحد، وكوجهين لعملة واحدة، وأعطوهما معان متماثلة؛ وذلك ليسهل عليهم إقناع المسلمين ليأخذوا بحضارة الغرب؛ مع أن الحضارة شيء، والمدنيّة شيء آخر، ويتباعدان عن بعضهما كتباعد السماء عن الأرض.

فالحضارة تعكس مفاهيم الأمة، وعقائدها عن الله، والإنسان، والكون، والحياة.

وبعبارة أخرى تعبّر الحضارة عن معتقدات، وأفكار الناس عن الخالق، والمخلوق. ومن ثم علاقة الله الخالق بمخلوقاته.

أما المدنيّة فهي تعبر عن الإنجازات العلمية، والمادية، وتعني المكتشفات، والمخترعات، والمصنوعات التي يخترعها الإنسان، ويصنعها للاستعانة بها على تحسين حياته المعيشية. فالحضارة تعبر عن عقيدة الأمة

بينما المدنيّة تعبر عن المنجزات، والمخترعات العلمية. وبالتالي من الخطورة بمكان أن يخلط بينهما، أو أن يجعلا مصطلحيْن لمعنى واحد. وهذه هي الجريمة الكبرى التي ارتكبها بحق المسلمين أنصار حضارتيْ الكفر الرأسمالية، والشيوعية. لقد نجحوا إلى حد كبير في إقناع كثير من المسلمين بمثل هذه المفاهيم، وإلى درجة أننا نسمع اليوم أصواتاً كثيرة تنادي بضرورة الاستعانة بحضارة الغرب، وأنه لاغضاضة أن يستفيد المسلمون مما تجود به عليهم حضارتا رأس المال، والشيوعية من عقائد، وأفكار، ومفاهيم، ومنجزات. وأصبح الكثير من المسلمين لا يفرق بين الحضارة، والمدنيّة، ويطلقونهما على التقدم العمراني، والتكنولوجي الغربي.

إنّ لكل أمة حضارتها التي تعبر عن معتقداتها؛ فالأمّة الإسلامية لها حضارتها التوحيدية الإيمانية، والتي تقضي أن الله خالق كل شيء، وما عداه فهو مخلوق؛ وأنه يجب التعامل مع الله، والنظر إلى الإنسان، والكون، والحياة من خلال الإيمان بمثل هذه المعاني الحضارية، العقدية، وعلى رأسها: إن الحكم إلاّ لله؛ وأنّ السيادة للشرع، ولا فصل بين الدين والسياسة. والأمة الرأسمالية لها حضارتها الشركية، والتي تشرك مع الله آلهة أخرى، وتفصل الدين عن الدولة، وتستبعد الدين عن السياسة، وتنكر تدخل رجال الدين في السياسة، والحكم، وشعارها: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.

والأمة الشيوعية لها حضارتها الإلحادية. والتي تنكر وجود الله، ولا تعترف بالدين؛ وشعارها: لا إله والحياة مادة. والدين أفيون الشعوب.

وهكذا فإن الحضارة مَعْلَمٌ عقَدي، ومظهر فكري؛ ولذلك فهي خاصة؛ ولكل أمة حضارتها. أي نظرتها إلى الله، والإنسان، والكون، والحياة؛ فالحضارة أقرب إلى الثقافة من العلم.

ولذلك لا يجوز مطلقاً للأمة الإسلامية الموحدة أن تتبنى حضارة أمّة كافرة. وأن تتعايش مع طراز عَقَديّ مخالف لعقيدتها. إنّ الحضارة الإسلامية في مفاهيمها عن الله الخالق، وعلاقة مخلوقاته به تجعل للأمة الإسلامية في نظرتها إلى الأمور الحياتية معايير، وضوابط عقَديّةً، وحضاريةً تختلف تماماً عن معايير، وضوابط الحضارتيْن الرأسمالية، والشيوعية. فالمسلمون يتقيدون بمعايير الحلال والحرام، وضوابط الصلاح، والإيمان، والتقوى عند تعاطي الأعمال،

والسلوكيات؛ ولذلك يحرم التزاوج بين حضارة الإسلام، وحضارات الكفر والإلحاد؛ لأن الأخيرة لا تفرق بين الحلال، والحرام؛ أو بين المادة، والروح.

أما بالنسبة للمدنّية: فلا غضاضة أن تكون عامة، وشاملة لجميع الأمم، والشعوب؛ لأنها تعبر عن المنجزات العلمية، والعلم عام. ولذلك فالخطورة تكمن في الغزو الفكري الحضاري، وليس في الاقتباس العلمي المدني. فبالغزو الحضاري الأجنبي تفنى الأمم. وبالنسبة لنا كمسلمين يجب ألاّ نخلط بين الحضارة، والمدنيّة، وألا نأخذ من حضارات الكفر ومدنيته إلا ما يتناسب مع حضارتنا، وعقائدنا، وعاداتنا، وتقاليدنا، وما هو نافع لنا. لقد أساءت حضارة الكفر الرأسمالية، والشيوعية إلى الله من خلال نظرتها إليه، ووصفه بصفات بشرية غير لائقة بجلاله، وكذلك من خلال إنكار وجوده، ووجود شريعته. ولقد أساءت حضارة الكفر هذه إلى الله من خلال نظرتها إلى الإنسان، وتشويه حقيقة وجوده، واعتباره سيد الكون من دون الله، وأنه كل شيء في هذا الوجود، وفي غياب الله خالقه. ولقد أساءت هذه الحضارة إلى الله أيضاً من خلال نظرتها إلى الكون، وتفسيراتها المادية له، وبأنه أزلي، أو موجود بالصدفة، ولا خالق له، ويسيّر نفسه من تلقاء نفسه.

ولقد أساءت أيضاً إلى الله من خلال نظرتها إلى الحياة، وأنها مستقلة عن خالقها، ولا خالق لها. وأن المادة وهبت نفسها روح الحياة، وبدأت الخلية الحية من تلقاء نفسها، وهي التي خلقت عوامل بقائها، وتطورها.

وبمثل هذه الترهات الفكرية، والخزعبلات العقدية، والتحليلات النظرية، والنظريات العلمية قدمت حضارة الكفر الرأسمالية، والشيوعية نفسها لتحكم الشعوب، والأمم في بقاع هذه المعمورة؛ وبتفسيراتها اللامعقولة لوجود الإنسان، والكون، والحياة فقد أساءت إلى الله تعالى. ومن أجل الرد على هذه الإساءة، وفضح حقيقة هذه الحضارة الكافرة المخزية، وكشف زيف خدعها، ووسائلها، ومفاهيمها، ومنها الخلط بين مفهوميّ الحضارة، والمدنيّة، وتأصيلاً لحضارة الإسلام النقية، الطاهرة، العقلانيّة، وخاصة في نظرتها التوحيدية، الإيمانية الصائبة إلى الله، والإنسان، والكون، والحياة، من أجل ذلك كله وضعت هذه الدراسة المتواضعة، وبعنوان: «إساءة الحضارة الرأسمالية، والشيوعية إلى الله» ودعائي إلى الله أن ينفع بها أمة محمد ﷺ لتبقى دوماً على جادة الصواب، ومتبعة

لسبيل الله المستقيم، ومتمسكة بحضارة دينها الإسلام استهداءً، واسترشاداً، وتطبيقاً لقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هذا صِراطي مُسْتَقِيماً فَاتبعوه وَلا تتبّعوا السُّبُلَ فَتَفَرق بكُمْ عَنْ سَبيله ذلكُمْ وَصّاكم بِهِ لعلكم تَتَقونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

المؤلف

الأستاذ الدكتور غازي عناية
جامعة جرش - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

التعريف بالحضارة والمدنية

يرى المدقق فيما يطرحه عملاء الغرب من العلمانيين، ودعاة التغريب في بلاد المسلمين من أفكار، ومفاهيم، وتعاليم، ومصطلحات غربية، كفرية أنهم أقرب إلى الكفر منه إلى الإسلام، وهم ينتسبون إليه، وهم أبناء جلدتنا؛ وفي نفس الوقت تجد بعضهم يرتدي ثياب المصلحين، المؤمنين، الأتقياء، ويبدي غيرة شديدة على الإسلام؛ وربما يكون هذا سبب جرأتهم على التطاول على دين آبائهم، وأجدادهم، ومناداتهم بضرورة تطويره، وتطوير أحكامه، وتطويع أنظمته؛ لتتلاءم مع معطيات الحضارة الغربية الحديثة؛ ومن أجل ذلك رفعوا شعارات الإستفادة من حضارات الغرب الصليبي الكافر، وحضارات الشرق الشيوعي الملحد، وذلك من خلال طرح مفاهيم، ومصطلحات مشوشة، غريبة عن واقع المسلمين الحضاري، وسمّوها معطيات حضارية لا غنى عنها للمسلمين، وضرورية لهم إن أرادوا الخروج من وَهْدَةِ التخلف الحضاري، والانهزام المدني. وأحاطوا هذه المفاهيم، والمصطلحات بشعارات برّاقة، جذّابة لجذب الأنظار إليها، وإقناع عقول المسلمين بها، وعلى رأسها مصطلحات: الديمقراطية، والاشتراكية، والرأسمالية، والوطنية، والقومية، والعلمانيّة، والوجودية، والحريّة، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والمساواة، وفصل الدين عن الدولة، والثقافة العالمية، والتقارب بين الأديان، والتحاور بين العقائد، والمزج بين الحضارات، وإثراء الفكر الإسلامي بالفكر الغربي، وإطلاق الضريبة على الزكاة، وغيرها من مفاهيم الزيغ، والضلال، والتي حاولوا بها حشو أذهان، وعقول المسلمين طائعين، أم مكرهين.

ولتمرير دعاويهم، وأباطيلهم الفكرية في العالم العربي الإسلامي لجأ دعاة

التغريب إلى أسلوب آخر يتمثل في استعمال بعض المصطلحات في غير محلها، وإطلاقها على غير معانيها، وإلصاقها بمعان بعيدة عنها، والتعبير بها عن معاني مصطلحات أخرى؛ ومن ثم استخدام المفاهيم الغامضة، والتعبيرات الفضفاضة، والشعارات المعقدة، ومنها مفهوما الحضارة، والمدنيّة.

لقد تفنن دعاة التغريب في الخلط بين مفهومَيْ الحضارة، والمدنيّة، وجعلوهما بمعنى واحد، وكوجهَيْن لعملة واحدة، وأعطوهما معان متماثلة، وأطلقوهما على شيء واحد؛ وهكذا صدّق إبليس عليهم ظنّه، وكل ذلك ليقنعوا أنفسهم، وليوهموا عامة المسلمين أبناء جلدتهم أنه لا غنى لهم عن حضارة، ومدنيّة الغير، وما فيهما من علوم، وفنون، وثقافات، ودساتير، ونظريات، وأنظمة، وفلسفات، وأفكار، وتعاليم، ومفاهيم، وشعارات، ومظاهر؛ ومن ثم وضعهما في قوالب إسلامية؛ ليسهل على عقول المسلمين قبولهما؛ وكل ذلك على عواهنه، وعمومياته، ودون التفريق بين ما يصلح لنا، وما لا يصلح؛ ودون التدقيق بين ما يجب أن يؤخذ، وما لا يجب. ومن ثم لاضيْر بالنسبة لهؤلاء من إلصاق ما لا يليق بحضارتنا من مفاهيم، ومعانٍ هُمْ سمّوها حضارية، وبترقيع ديننا بما لا يتناسب معه من أفكار. وتعاليم هم سمّوها عصرية، وهم يعلمون، أولا يعلمون أن حضارة الإسلام تنأى بنفسها عن كل دخيل، وغريب فكري، وعن كل مستورد عقدي أو حضاري، أو ثقافي.

إن دعاة التغريب، ومن ورائهم أسيادهم الغربيون خلطوا بين مفهومَيْ الحضارة، والمدنيّة؛ ومن ثم خلطوا بين معاني الحضارة ذاتها، وجعلوا لها مفاهيم ليست لها؛ وهدفهم في ذلك التأكيد على صحة، وسلامة، وفاعلية، ونجاعة الحضارة الغربية في التحديث الفكري، والتقدم العمراني؛ وأنها وحدها الكفيلة التي يجب أن يعوّل عليها في فهم عقائد الأمم الأخرى، وفي فهم الانسان الآدمي لحقيقة وجوده؛ وأنها المعيار الأمثل الذي يتحدد تبعاً له منهاج التقدم النهضَوي للشعوب، والأمم، وعلى اعتبار أن المنهاج هذا يقاس دوماً بمؤشرات فكرية، ومعطيات حضارية. لقد خلطوا بين الحضارة، والمدنيّة، مع أن الحضارة شيء، والمدنيّة شيء آخر. ولكل منهما معان مختلفة؛ ومفاهيم متباينة؛ ويتباعدان بهذه المعاني، والمفاهيم عن بعضهما كتباعد السماء عن الأرض. فالحضارة تعرّف: «بأنها النظرة المبدأية للأمة، ومفاهيمها عن الله، والإنسان، والكون،

والحياة». بينما تعرّف المدنيّة: «بأنها الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التي يصنعها الإنسان».

فالحضارة تعبر عن وجهة نظر الأمّة، ومفاهيمها عن الله، والإنسان، والكون، والحياة. فهي تعبر عن عقيدة الأمة، والمبدأ الذي يحكمها. وبالتالي فالحضارة تعكس العقيدة السائدة في المجتمع، والأفكار المنبثقة عنها، والمتعلقة بالخالق، والمخلوق. وبالتالي فإن الحضارة تعني المفاهيم الناتجة عن وجهة نظر الأمة التي تشكل طرازاً خاصاً لها في الحياة. إن الحضارة طريقة معيّنة في الحياة، إنها طراز عقدي فكري عن الحياة، وموجدها، وتمثل المفاهيم، والأفكار العقديةِ للأمة؛ في حين أن المدنيّة تعبر عن الإنجازات العلمية، والمادية، وتعبر عن المخترعات؛ وتعني المكتشفات العلمية، والمصنوعات التي يصنعها الإنسان كوسائل ماديّة يستعين بها في حياته، وفي الترفيه عن ذاته: كوسائل المواصلات، ومنها: الهاتف، وأجهزة الفاكس، والتيلكس، والكمبيوتر؛ وكالأدوات الكهرو منزلية، ومنها: أدوات الطبخ، والأطباق، والمغارف، وأفران الغاز، والكهرباء، والتلفزيون، والراديو ... الخ.

وكأدوات النقل البري، والبحري، والجوي، ومنها: السيارات، والطائرات، والبواخر؛ وكأدوات الإطلاق الكشفي، ومنها: الأقمار الصناعية، وآلات التصوير، وغيرها. وكأدوات البناء، والمصانع، والآلات، ووسائل الترفيه، والحسابات، والعلوم، وغيرها من المصنوعات، والأدوات التي تسهل على الإنسان حياته، وتحقق له رفاهيته.

ومن هنا تقتضي الضرورة الفكرية، والحاجة العلمية التمييز تماماً بين الحضارة بمدلولها العقدي، والفكري، والروحي، وبين المدنيّة بمدلولها المادي، الصناعي، التكنولوجي.

فالحضارة مظهر عقدي، فكري يعكس مفهوم الأمة عن الحياة، وخالقها؛ ولذلك فهي خاصة وليست عامة؛ ولكل أمة من الأمم حضارتها الخاصة بها، والتي تعكس وجهة نظرها، ومفاهيمها عن الله، والإنسان، والكون، والحياة. وهي أقرب إلى الثقافة من العلم. بينما المدنيّة مظهر مادي، دنيوي، ومحسوس؛ ويعكس إنجازات الأمة، ومكتشفاتها، ومخترعاتها العلمية؛ وبالتالي فإن هذه لا تعكس مفاهيم منجزيها، ومخترعيها. ولا تعبّر عن عقائدهم، ومبادئهم،

ومفاهيمهم عن الله، والإنسان، والكون، والحياة. ولذلك فهي عامة، وليست خاصة، وتستفيد من الإنجازات العلمية جميع الأمم؛ فالعلم للجميع؛ وبالتالي فهي أقرب إلى العلم من الثقافة.

إن المخترعات، والمكتشفات المادية، والمنجزات العلمية مظاهر مدنيّة، وليست مظاهر حضارية. وبالتالي فإن المصانع، والكهرباء، والغاز، والطائرات، والسيارات، والكمبيوتر، والراديو، وآلات التصوير، والفيديو، والتلفزيون، والأفران، والثلاجات، وغيرها من المنجزات المادية، والمدنية ليست من الحضارة في شيء؛ وإن استعمالها لا يترك بصمات فكرية على مستعمليها، ولا يتعارض استعمالها مع عقائدهم، ومفاهيمهم، وأفكارهم بل وحضارتهم. وهي لا تعني بالنسبة لمستعمليها سوى أنها وسائل مادية ترفّه عنهُمْ، وتسهّل عليهم معيشتهم. وبالتالي فإذا حصرنا أشهر الحضارات السائدة في العالم اليوم في ثلاث، وهي: الحضارة الإسلامية، والحضارة الرأسمالية، والحضارة الشيوعية؛ فإننا نستطيع أن نقول: إن هذه تعبر عن عقائد منفصلة لا يمكن الجمع بينها، بينما يمكن أن تجْتمع مدنياً. ولا عجب في ذلك؛ فالمدنيّة بعلومها يمكن أن تعمّ جميع الأمم، والشعوب؛ والأفراد، ولا ضيْر. فالأمة الإسلامية يمكن أن تستفيد من علوم، ومخترعات، ومكتشفات الأُمّتيْن الرأسماليه، والشيوعية ودون أن يؤثر ذلك على عقيدتها، ومفاهيمها، وأفكارها الروحية. ونفس الشيء بالنسبة للأمتيْن الرأسمالية، والشيوعية.

فالمسلمون مثلاً يستطيعون أن يستعملوا، وأن يستوردوا المصانع، والسيارات، والطائرات، والوسائل السمعية، والبصرية المصنوعة في المجتمعات الرأسمالية، والشيوعية، وكذلك لا غضاضة بالنسبة لشيوعي ملحد أن يقتني سيارة، أو أن يركب طائرة، أو أن يستورد تلفزيوناً، أو أن يستعمل هاتفاً صنعه رأسمالي يهودي، أو مسيحي.

وكذلك لا غضاضة بالنسبة لرأسمالي يفصل الدين عنْ الدولة، ويؤمن بالمسيح إلٰهاً أن يستعمل ما ورد ذكره، وقام بتصنيعه شيوعي ملحد؛ ودون أن يؤثر ذلك في عقائد، ومفاهيم هؤلاء الحضارية. وإن استعمال إنجاز علمي لأمة من الأمم لا يعني أبداً تنازلا عن حضارة الأمة المستعملة، أو المستفيدة.

ويمكن بالمقابل للشيوعي الملحد، والرأسمالي الكافر أن يقتني البترول

المستخرج من البلاد الإسلامية، وأن يستفيد من الصناعات البتروكيمائية: كالميثالين، والبنزين، والكيروسين؛ وأن يلبس المصنوعات القماشية، والملابس المصنعة على وبأيدي مسلمين، مؤمنين، موحدين؛ وذلك دون أن يؤثر ذلك على عقائدهم، وأفكارهم، ومفاهيمهم الإلحادية، والرأسمالية.

وبالتالي فإن بإمكان المسلم، والشيوعي، والرأسمالي أن يستفيد كل منهم من علم الآخر؛ وأن يستعمل مكتشفه العلمي، واختراعه المادي؛ اللهم إلاّ بالنسبة لبعض الجزئيات العلمية التي تتعلق بالعقائد: كنظرية داروين، والسحر، والجنس الضار، وصناعة الخمور، وتعليب لحوم الخنازير، وصناعة آلات القمار، وغيرها بالنسبة للمسلمين.

ومن هنا يتضح أن الحضارة شيء، والمدنيّة شيء آخر. وأن حضارة العقائد، والمفاهيم شيء، ومدنية العلوم، والمخترعات شيء آخر.

إن الخطورة على المبادىء، والمفاهيم، والقيم الحضارية تكمن في الغزو الحضاري، وليس الغزو المدني، أو العلمي؛ وخاصة إذا أحسن تطويعه، والاستفادة منه.

إن الخطورة بالنسبة للعلاقات بين الأمم تكمن في الغزو الفكري، العقائدي؛ وبالتالي فإن المسلم لا يخاف، ولا يجب أن يخاف من الصواريخ الشيوعية، أو المدافع الرأسمالية، وكذلك فإن الرأسمالي لا يخاف من أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها الشيوعي؛ وهذا بالتالي لا يخشى من تلك التي يمتلكها الرأسمالي؛ لأن هذه الأمور هي منجزات علمية، ومخترعات سلاحية مادية لا علاقة لها بالمبادىء، والعقائد، والأفكار، والمفاهيم المنبثقة عنها؛ وإن تأثيرها على الأمم، والشعوب ـ وإن كان قوياً مدمراً ـ يبقى أهون، وأقل خطراً من الغزو الحضاري، والسلاح العقائدي، والذي به تفنى الأمم. وكذلك بالنسبة للقيم الحضارية: فهي تظل أكثر خطراً من القيم المادية على الأفراد، والشعوب. وبالنّسبة لنا كمسلمين يجب أن نفرق بين ما يصلح لنا من هذه القيم الحضارية، والمادية، وما لا يصلح. والفرق يبدو واضحاً بين حضارات تتنكر للدين، أو تستبعده، وتكفر بالله، أو تحيّده، وبين حضارة الإسلام التي تقوم على الدين، وتؤمن بالله، وتوحدّه. فبالنسبة للحضارتيْن الشيوعية، والرأسمالية لا وجود مطلقاً للحلال، والحرام في مقاييسهم، ونظرتهم للأمور، والأشياء. فكل ما يحقق لهم

منفعة مادية، أو معنوية تكون له قيمة. فهم يعتبرون الرقص بأنواعه، وعرض الأزياء، ومسابقات انتخاب ملكات الجمال، والفنون، والتمثيل، والسينما، والمسرح، والفلكلور، والغناء له قيم حضارية. وبالتالي لا عجب أن تباع لوحة لامرأة عارية رسمها أحد الرسامين القدامى بملايين الدولارات.

كل ذلك يعتبرونه نتاجاً حضارياً يُعتدّ به؛ في حين أن مثل كثير من هذه الفنون، والرسومات ليس لها أية قيم حضارية في الإسلام، بل وتعتبر في كثير من أشكالها حرام لا يجوز تعاطيها؛ لأنها تتعارض مع مفاهيم الحضارة الإسلامية عن الحياة.

وعلى النقيض من ذلك نجد أن هنالك قيماً حضارية إسلامية هي في نظر أصحاب الحضارات الأخرى قيماً تافهة، وتنم عن التخلف، والرجعية، والظلم، والضلال مثل: ستر عورة المرأة، ولبس الحجاب، وعدم التبرج، وعدم التنمص، وعدم التوشم، وعدم التفلج، وعدم الميوعة، وعدم الميلان بالنّسبة للنساء، وعدم التشبه بالنّساء من الرجال، وعدم الاختلاط، وعدم الخلوة، وتحريم الزنى، واللواط، والشذوذ الجنسي، والعلاقات الجنسية المحرمة، وعدم سفر المرأة دون محرم، وعدم توظيف الأنثى استغلالاً لأنوثتها، وعدم توليّها الحكم، وعدم خروجها من البيت لغير ضرورة، وعدم تسكعها في الشوارع، وعدم توظيفها في الوظائف التي لا تتناسب مع أنوثتها، وغيرها من القيم، والعادات، والسلوكيات التي تعتبرها الحضارات الأخرى قيماً حضارية سامية، وتشجع عليها، وتيسرها لطالبيها؛ وفي نفس الوقت تستنكر عدم تعاطيها خاصة في القرن العشرين، والواحد والعشرين، والأمثلة على مثل هذه القيم، وغيرها تحكم عليها الحضارات تبعاً لعقائدها.

التعريف بالحضارة الإسلامية

إن الحضارة الإسلامية في مفاهيمها عن الله، والإنسان، والكون، والحياة تختلف تماماً عن الحضارات الأخرى، وعلى رأسها الحضارتان الرأسمالية، والشيوعية. وبالتالي تختلف عنهما في نظرتها إلى الأمور الحياتية. ويتقيد المسلمون بمعايير الحلال، والحرام عند الحكم على الأمور، أو عند تعاطي الأعمال، والسلوكيات، وإتمام المعاملات؛ وذلك لأن الحضارة الإسلامية إلٰهيّة قبل كل شيء؛ والأمور الروحية لها اعتبارها؛ وكذلك التقيد بالأوامر، والنواهي الالهية. ومن أجل ذلك لا يجوز مطلقاً التزاوج بينها، وبين غيرها من الحضارات الكافرة، والملحدة، والمادية. نقول هذا لأن البعض من مثقفينا الإسلاميين قد حاولوا ـ والله أعلم ـ وبحسن نية إحداث ذلك التزاوج، وبغير دليل، أو بسبب خلطهم بين الحضارة، والمدنيّة. ومن هؤلاء المفكر الإسلامي خالد محمد خالد حيث يقول في مقال له: «أما عن الحضارة فإن المتطرفين في هَجْوها، والداعين إلى مقاطعتها يقعون في تناقض عجيب، ومريب؛ فهم يتحدثون في التلفون، ويستضيئون بالكهرباء، ويركبون الطائرات في سفرهم إلى الحج. أفلا يعلمون أن هذا كله مما أفاءته الحضارة عليهم من عطاء»[1].

ويبدو أنه خلط بين مفهومي الحضارة، والمدنيّة. فالتلفون، والكهرباء، والطائرات هي منجزات مدنيّة، ومخترعات علمية، ولا علاقة لها بالحضارة؛ لأنها لا تعكس مفاهيم مخترعيها عن الله، والحياة، وبالتالي لا تؤثر على حضارة، وعقائد، ومبادىء، ومفاهيم مستعمليها، ومنهم المسلمون.

ومن هؤلاء الذين مزجوا بين الحضارة، والمدنيّة الصحفي، المفكر

(١) خالد محمد خالد. مقال له بعنوان: أسباب أربعة للتطرف الديني ـ مجلة العربي عدد ٢٧٨ ص ٥٦.

الاسلامي فهمي هويْدي. حيث يقول في مقال له أيضاً: «إن الحضارة الإسلامية شارك في صنعها المسلمون، وغير المسلمين؛ وهؤلاء هم الآن أبناء شرعيون لهذه الحضارة»[١].

وقوله مخالف للحقيقة؛ حيث أن الحضارة الإسلامية بعقائدها، ومفاهيمها عن الله، والحياة تختلف تماماً عن الحضارات الأخرى الكافرة، فكيف يعقل القول بأن غير المسلمين ـ أصحاب تلك الحضارات ـ ساهموا في صنع حضارة الإسلام؟!! اللّهم إلاّ أن يكون قد عنى في المشاركة المخترعات، والمنجزات العلمية، والأشكال المادية من سيارات، وطائرات، وآلات، ومخترعات؛ وهذه ليست من الحضارة، وإنما نتاج مدني محض.

وبنفس الخطأ، وبالخلط بين الحضارة، والمدنيّة قدم المفكر الإسلامي محمد عمارة قوله: «لا توجد في التاريخ القديم، أو الحديث حضارة نقيّة أنجزها أبناؤها دون أن تكون لها مع الحضارات الأخرى صلات، وعلاقات؛ وتأثر وتأثير؛ وحضارة العرب في الماضي، ومحاولات الانبعاث الحضاري في هذا العصر لا تخرج عن هذا الإطار»[٢].

وقوله هذا ينافي الحقيقة الفكرية بأنه لا توجد تأثر، وتأثير بين الحضارت؛ لأن هذا يعني التفاعل، وهو أخذ، وعطاء؛ وهذا يتم عادة بالنسبة للمدنّية، وليس للحضارة، وبالنسبة للعلوم، والمخترعات، وليس العقائد، والمفاهيم.

ويجب علينا كمسلمين أن لا نخلط بين الحضارة، والمدنيّة عندما نقيّم الأمور، والأشياء، أو عندما نحدد كيفية تعاملنا مع الأفكار، والعلوم، وعلينا أن نميّز بين ما هو حضاري، وما هو مدني؛ وكذلك بين ما يجب أن نأخذه من قيم حضارية أو مدنيّة، وبين ما لا يجب أخذه.

وبالنسبة للقيم الحضارية: فمعيارنا هو الحذر الشديد مما نأخذه، ويأتينا من حضارات الكفر، ويجب أن لا نأخذ إلاّ الذي تستوعبه حضارتنا، وترتضيه

(١) فهمي هويدي ـ مقال له بعنوان: خطوط عريضة لمشروع إسلامي ـ مجلة العربي. عدد ٢٩٥ ص ٤٧. سنة ١٩٨٣ م.

(٢) محمد عمارة ـ مقال له بعنوان: الانفتاح العربي على الحضارات الأخرى. مجلة العربي. عدد ٣٥١ ص ٣١. سنة ١٤٠٨ هـ.

عقائدنا، وأخلاقنا: كالصدق، والوفاء بالعقود في المعاملات، وحسن المعاملة، وإتقان العمل، والنظام، والضبط، وغيرها من القيم التي تجد أساساً لوجودها في حضارتنا.

وبالنسبة للقيم المدنية: فمعيارنا يجب أن يكون الانفتاح، والاستفادة من علوم الغرب، ولكن مع التروّي، وحسن الاختيار، وجوْدة الإنتقاء؛ ولا نأخذ من علومهم، ومخترعاتهم إلاّ الذي لا يؤثر على عقائدنا، وأخلاقنا، ومفاهيمنا الإيمانيّة، والسلوكية، وفي نفس الوقت يفيدنا.

إن بإمكاننا أن نقتني وسائل العلم، وأجهزة البثّ الإعلامية: كالكمبيوتر، والكتب، والتلفزيون، والقمر الصناعي، والراديو، والمقعرات الهوائية اللاقطة، وغيرها من الصناعات الغربيّة، ولكن يجب علينا أن نتروى في استعمالها، ولا نأخذ بكل ما تبثه، ولا نستورد من أشرطة البث سواء الكاسيت، أو الفيديو إلا ما يفيدنا؛ وعلينا أن نحذر من كل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية من عقائد، وأفكار، ومفاهيم قد تؤثر على عقائدنا، وقيمنا، وأخلاقنا الحضارية؛ إنّ القمر الصناعي أشد خطراً من الصاروخ الحربي؛ لأن ما يبثّه من أفكار، ومفاهيم هو غزو حضاري؛ وهذا الغزو أشد خطراً من المدافع، والقنابل، والقاذفات، والراجمات الصاروخية؛ لأن هذه تظل وسائل مدنيّة مادية قد تقتل الأجسام، ولكنها لا تستطيع قلب الأفكار، والعقائد، والمفاهيم؛ وبالتالي لا تستطيع القضاء على الأمم، أو إفناء الشعوب.

إن مقياس التقدم الحضاري الحقيقي للأمم، والشعوب يتمثل في عنصريْ الحضارة، والمدنية معاً، وبتغليب الحضارة على المدنية؛ لأن العنصر الحضاري المتمثل بشواهده العقدية، والفكرية، وقيمه السلوكية، والأخلاقية أهم بكثير من العنصر المدني المتمثل في إنجازاته العلمية، ومخترعاته الصناعية، ومكتشفاته المادية. وبالتالي فإن معيار التقدم الحضاري السليم للأمم يستند إلى شواهده العقدية، والفكرية السليمة، والصحيحة عن الله، والإنسان، والكون، والحياة. ومن ثم فإن التحضر الحقيقي الراقي هو الذي يؤصل المفاهيم الصحيحة عن الله، الخالق، وعلاقة مخلوقاته به، ويضع هذه العلاقة في مكانها السّويّ الصحيح. إنّ النظرة المبدأية الصحيحة، وإن المفاهيم السليمة عن الخالق، والمخلوق تعتبر المؤشر الحقيقي، المعوّل عليه لتحضر الأمم، وتقدمها ما دامت الحضارة أصلاً هي عقيدة، وفكر، ومفاهيم.

ومن هنا نستطيع القول: بأن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة المتقدمة من بين الحضارات؛ بسبب أنها صاحبة النظرة المبدأية الصحيحة عن الله؛ وبسبب فكرها العقدي النيرّ عن الخالق، وعلاقته بمخلوقاته، وبسبب مفاهيمها العقلانيّة الرّاقية عن الله، والحياة، والكون، والإنسان. ومن ثم تظل الأمة الإسلامية متقدمة حضارياً عن غيرها؛ لأنها أحسنت في نظرتها المبدأية إلى الله، وأصابت في مفاهيمها العقيدية عن الله، والكون، والإنسان، والحياة.

فالحضارة الإسلامية تُعتبر طراز الحياة الإسلامية الموحدة، المؤمنة بالله، والملتزمة بأوامره، ونواهيه؛ وأنّه الواحد، الأحد، لا خالق سواه، وغيره مخلوق؛ ولا معبود سواه، وغيره عابد له. لقد أصّلت حضارة الإسلام حقيقة خلق الله للحياة، ولقد فقهت أمة هي أمة الإسلام غرض هذه الحقيقة، ووضعتها في موضع التطبيق الفعلي، فعبدت الله من دون الأمم، فكانت هي الوحيدة المتحضرة. قال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْس إلا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦].

وبمثل هذه المفاهيم نُعرّفُ الحضارة الإسلامية: «بأنها النظرة المبدأية للأمّة الإسلامية، ومفاهيمها عن الله، والإنسان، والكون، والحياة».

ونُعرّفها أيضاً: «بأنها المفاهيم العَقَدِيّةُ للأمة الإسلامية عن الخالق، ومخلوقاته، والعلاقة بينهما».

ونُعرّفها أيضاً: «بأنها الأفكار المبدأية للأمة الإسلامية عن الله، والحياة، والدنيا، والآخرة».

وبمثل هذه التعاريف أحسنت الحضارة الإسلامية إلى الله، خالقها؛ وأحسنت التعامل معه، ومن ثم وضعت العلاقة بينه، وبين مخلوقاته في مكانها الصحيح.

وعلى العكس فقد أساءت الحضارات البشرية الأخرى التعامل مع الله تعالى. فقد كفرت به، وأشركته بمخلوقاته في الإيمان، والعبادة، وأنزلته منازل آدمية دنيئة.

فهذه الحضارة اليونانية القديمة: تؤمن بالله، ولكن تنكر صفة الوحدانية، والوجود له.

إن كبير فلاسفتهم «أفلاطون» يقول: إن الله الواحد غير الأحد؛ لأن الواحد قد يدخل في عداد الإثنين، والثلاثة، والعشرة؛ ولا يكون الأحد إلاّ مفرداً بغير تكرار. وإن الله لا يوصف بأنه موجود؛ تنزيهاً له عن الصفة التي يقابلها، وهي العدم، وتشترك فيها الموجودات.

وهذا على عكس ما يقوله المسلمون الموحدون. فالله واحد أحد. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

وكذلك تنعت الحضارة اليونانية الله بنعوت لا تتلاءم مع جلاله، وقدره. فهو لا يعمل، ولا يريد، وهو، والعدم سواء. وهو ليس بخالق للعالم، والوجود، ومادته التي يتكون منها.

إن مذهب أرسطو في الإلٰه أنه: كائن، أزلي، أبدي، مطلق الكمال؛ لا أول له، ولا آخر؛ ولا عمل له، ولا إرادة. ومنذ أن كان العمل طلباً للشيء، والله غني عن كل طلب. وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمريْن، والله قد اجتمع عنده الأصلح، والأفضل من كل كمال؛ فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح، وغير صالح؛ ولا بين فاضل، ومفضول. وفي مذهبه أيضاً: أن الله لا يعنيه خلق العالم، أو خلق مادته التي يتكون منها، والتي تسمى الهيولي؛ حيث أنّها تتمتع بقابلية الوجود من نفسها، ويخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قِبَل الإلٰه؛ فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها، فتتحرك، وتعمل بما فيها من الشوق، والقابلية. ولا يقال عنها: أنها من خلق الله. وبالتالي فالله عند أرسطو كمال مطلق لا يعمل، ولا يريد؛ وهو والعدم سواء. ولا يعقل ذاته، وما دونها؛ ويتنزه عن الإرادة؛ لأنها طلب، والله لا يطلب شيئاً غير ذاته. ولا يعني بالخلق، لأن الخلق أحرى أن يطلب وجوده بقوته، وشوقه إلى الوجود.

ولكن الله كما تؤصله الحضارة الإسلامية: ﴿أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨].

﴿فَعَّالٌ لما يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]

﴿ذلكَ عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [السجدة: ٦].

﴿وَمَا يَعْزُبُ عنْ رَبِّكَ مِنْ مثقالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

﴿هُوَ خالِقُ كُلِّ شيءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وهذه الحضارة الفارسية قبل الإسلام: كفرت بالله، وعبدت الشمس من دونه، وسجدت للنّار وقدّستها. وكانت حضارية مجوسية خالفت التعاليم الإلهية الروحية، ومتعت النفس البشرية ودون حـدود؛ وأباحت للأب أن يتزوج ابنته، وأن ينجب منها ذريته.

وهذه الحضارة الهندوسية القديمة: والتي ما زالت إلى الآن تنكر الإلٰه الخالق، وتعبد الإلٰه المخلوق؛ والمتجسد في الثالوث المقدس، والمتكون من ثلاث صور إلهية: الإلٰه «براهما» في صورة الخالق. والإلٰه «فشنو» في صورة الحافظ. والإلٰه «سيفا» في صورة الهادم. فجعلوا الهدم، والفساد من صفات الله؛ وزادوا على ذلك أن جعلوا للإلٰه صاحبة ينسبون إليها شروره، وآثامه. زد على ذلك أن الحضارة الهندوسية بالغت في تعدد الآلٰهة، وجعلت شيخها الإلٰه «رم»، والذي تُرتكب بحقه، وباسمه المجازر الكبيرة يرتكبها الهندوس هذه الأيام بحق الهنود المسلمين؛ ومنها إحراق أطفالهم في حافلات الركوب، والقتل بكل أنواع السلاح، ومنها السكاكين. زد على ذلك أن الحضارة الهندوسية أمْلَتْ على أتباعها عبادة البقر، والتي تتزيّن النساء بأبوالها، وروثها؛ ويُشبهون البقرة بالمرأة الأم الآدميـة، والبقرة مثلها تجود بحليبها على الناس فهي بالتالي كالأم البشرية لا يجوز ذبحها، ولا يجوز أكل لحومها.

زد على ذلك أن الحضارة الهندوسية ورثت المجوسية في تقديسها للنار، وبذلك يحيون أفراحهم، وأحزانهم من حولها، ويحرقون جثث موتاهم بها، وينثرون رمادها في نهر الكنج المقدس؛ ليطهرهم من ذنوبهم، ويتشفع لهم عند الله، فيغفر لهم ذنوبهم، ويدخلهم الجنة. وقد أحرق «ابن أنديرا غاندي» أمّه بالنار أمام الملأ بعد وفاتها. وعندما أُحرق جثمان والدها «نهرو» حجبت الشمس حزناً عليه نهار ذلك اليوم، وادعى الهندوس أن الشمس احتجبت من وراء السحاب، حُزناً عليه، ولم تستطع رؤية «نهرو» ميتاً، محروقاً.

وهذه الحضارة البوذية: تتنكر للإلٰه الخالق، وجعلت من «بوذا» المخلوق

إلهاً لها؛ مع أن «بوذا» نفسه لم يكن يؤمن بالإله. وكان ينكر على أتباعه أن يسألوهُ عن الإله؛ وكان يملي عليهم تعاليمه التي تأمرهم بتعذيب أنفسهم، وأجسادهم. وهم يفعلون ذلك إلى الآن، وخاصة في جنوب شرق آسيا، ومنها بلاد اليابان التي تتصدر بلدان العالم اليوم في التصنيع، والتقدم العلمي، المدني الراقي.

وهذه الحضارة الفرعونية: والتى بلغت عقائدها في عهد الفرعون «أخناتون» إلى درجة كبيرة من التوحيد، والتنزيه للإله؛ إلا أنها لم تتخلّ عقائدها تلك عن صور التجسيم، والتشبيه للإله ببعض مخلوقاته كالشمس مثلاً. فكانت رمزاً للإله ومرادفة له حين الصلاة له.

وقد بلغ التشبيه بالإله ذروته عندما ادّعى فرعون موسى «رمسيس»، أو ابنه «أمنمحات» الألوهية من دون الله، فقال تعالى على لسانه: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّها المَلأُ مَا عَلِمْتُ لكُمْ منْ إِلٰهٍ غَيْري﴾** [القصص: ٣٨].

ولقد بلغ ادعاء فرعون بالألوهية حداً هدّد فيه نبيّ الله، ورسوله إليه موسى بالسجن إن لم يتخذه الهاً، أو إن عبد غيره؛ فقال تعالى على لسانه: **﴿قَالَ لَئِن اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْري لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجونينَ﴾** [الشعراء: ٢٩].

ولم يكف فرعون ادعاؤه الألوهية، وإنما جعل من نفسه المشرع الأول، والواجب على الناس أن يتبعوا شرعه؛ فقال تعالى على لسانه: **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أريكُمْ إلاّ مَا أَرى وَمَا أَهْديكُمْ إِلاَّ سَبيلَ الرَشَادِ﴾** [غافر: ٢٩].

وهذه حضارة الصابئين: كانوا من أهل الكتاب، فتنكروا لربهم، وعبدوا الكواكب، والنجوم.

وهذه حضارة العرب في الجزيرة العربية: إن جاز لنا أن نسمّيها حضارة، كفرت بربها، وأشركت به الأصنام، والأوثان، وأهمها: هُبَل قبيلة هذيل، ومناة أهل الطائف، واللاّت، والعزى، والصنم أساف الذي كان على الصفا، والصنم نائلة التي كانت على المروة، وقد وصل عدد أصنام قريش في مكة عند الفتح لها ما يقارب عدد أيام السنة وهي ثلاثماية وستين صنماً. وقد ورد في الحديث الشريف أن أول من ابتدع عبادة الأصنام في مكة هو عمرو بن لحي الخزاعي، حيث أحضرها من الشام. قال ﷺ: «رَأيْتُ عمرو بن عامر الخزاعي يَجُرّ قُصْبَهُ في

النّار، وكان أوّلَ مَن سيّبَ السّوائِبَ، وبحر البحَيرَةَ» رواه البخاري، ومسلم، وأحمد عن أبي هريرة، وهو حديث صحيح.

وهذه الحضارة الرومانية: تنكرت للإله حيناً، وعندما اعتنقت النصرانية على عهد قسطنطين، تروّمت النصرانية، ودخلت عقائدها مظاهر الوثنية، ومنها عبادة الأوثان، ومظاهر القوة.

وهذه الحضارة اليهودية: تنكرت للإله خالقها، اله أنبيائهم المسلمين؛ واختارت اليهود الها خالصاً لهم هو الإله «يَهْوَه». وهو ليس برب العالمين، اختارهم من بين البشر، وسمّاهم شعب الله المختار، ووهبهم الجنة، وحرم الأمم الأخرى من دخولها، وعذب بني إسرائيل أربعين يوماً في جهنم، وهو عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل؛ ليطهرهم من ذنوبهم. وفي بعض نصوصهم التوراتية أن الإله «يَهْوَه» يعذب بني إسرائيل لعبادتهم العجل سبعة أيام فقط؛ فيعذبهم يوماً واحداً عن كل ألف سنة على اعتبار أن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة.

وقد وصفوا الإله في كتبهم بصفات إنسانية بشرية غير لائقة به: كحبه ريح الشواء، ومشيه في الحديقة ليتبرد بهوائها، وحبه للمصارعة، ومساواته بالشيطان عزازيل شيطان البرية؛ فيقدمون إليه، ويتقربون إليه بالذبائح، ويتقربون بها الى الشيطان عزازيل.

ووصفوه بأنه يندم، ويحزن، ويتعب، ويجهل، وغيرها من صفات النقص البشرية.

وهذه الحضارة النصرانية: كفرت بوحدانية الله، وأشركت به المسيح عيسى «عليه السلام» وأمّه مريم، وتبنّت عقيدة التثليث ذات الأقانيم الثلاثة: الأب، والإبن، وروح القُدُس - وهو جبريل. ويّدعي النصارى أنهم يؤمنون بإله واحد، ولكنه ذو طبيعة ثلاثية. وأحاطوا عقيدة التثليث بألغاز يصعب على العقل فهمها. ونسبوا الى الله عقائد ما أنزل الله بها من سلطان: كعقيدة صلب الله لابنه الرب يسوع المسيح، وموته على الصليب ليفتدي بدمه البشرية الآدمية من تحمل خطيئة أبيهم آدم الموروثة، والمتمثلة في أكله من الشجرة التى حرّمها عليه. لقد اضمحلت معظم الحضارات السابقة، واندمجت الحضارتان اليهودية، والنصرانية، وهما دينيتان في حضارتين لادينّتين من ابتداعهما، وهما الحضارتان الرأسمالية

والشيوعية، وهما اللتان تحكمان العالم اليوم.

وتبعاً لأساليب تعامل هاتيْن الحضارتين مع الله، والحياة عقائدياً، وفكرياً نستطيع أن نحكم على أنهما حضارتان متخلفتان غير متقدمتين، وأنهما وحشيتان غير أخلاقيتيْن، ولو أنهما بلغتا الذروة في التقدم المدني، والعلمي، والصناعي، لأنه ليس بهذا يتحقق التحضر.

لقد أساءتا التعامل مع الله من خلال نظرتهما إليه، وإلى الإنسان، والكون والحياة.



إساءة الحضارة الرأسمالية، والشيوعية إلى الله من خلال نظرتهما إليه:

أ ـ لقد وصفت الحضارة الرأسمالية اليهودية الربّ ـ أي الله ـ بصفات بشرية دنيئة لا تليق بجلاله: كالحزن، والضيق، والتعب، والحرج، والخطأ، والجهالة. فقد ورد في سفر التكوين في الإصحاح السادس عن حزن الرب: «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض». وقد ورد في نفس الإصحاح عن أسف الرب: «وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته... الإنسان مع بهائم، وطيور السماء؛ لأني حزنت أني عملتهم».

وقد ورد في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عن تعب الرب: «وفرغ الله في اليوم السادس من عمله، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله. وبارك الله اليوم السابع، وقدّسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً».

وقد ورد في سفر التكوين في الإصحاح الثالث عن جهالة الرب: «وسمعا صوت الرب الإلٰه ماشياً في الجنة عند هبوب الريح في النهار، فاختبأ آدم، وامرأته من وجه الرب الإلٰه في وسط شجر الجنّة؛ فنادى الرب الإلٰهُ آدمَ، وقال له: أين أنت؟!! فقال: سمعت صوتك في الجنّة، فخشيت لأني عريان، فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان؟! هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألاّ تأكل منها».

وقد ورد في سفر التكوين في الإصحاح الثامن عشر عن جوع الرب: «وظهر له الرب... ونظر، وإذا ثلاثةُ رجال، وقال: يا سيد ـ يعني الله ـ إن كنتُ قد وجدت نعمة في عينيك، فلا تتجاوز عبدك... فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة، وقال: اعجني، واصنعي خبز ملة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر، وأخذ عجلاً جيداً، وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبداً، ولبنا، والعجل الذي عمله، ووضعها قدّامهم. وإذا كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة، أكلوا، وقالوا

له: ويكون لسارة امرأتك ابن. . . فضحكت سارة في باطنها قائلة: بعد فنائي يكون لي تنعم، وسيدي قد شاخ. فقال الرب لابراهيم: «لماذا ضحكت سارة؟!! هل يستحيل على الرب شيء».

وقد ورد في سفر التكوين في الإصحاح الثاني والثلاثين عن مصارعة الرب ليعقوب: «فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر؛ ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني!! فقال له: ما اسمك؟! فقال: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل. وسأل يعقوب، وقال: اخبرني باسمك! فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟! وباركه هناك»[١].

وقد اختارت الحضارة اليهودية إلهاً آخر لها من دون رب العالمين، وهو الرب «يَهْوَه» عبدته، وقربت القرابين له، وصامت له، وعقدت صلحاً معه أدخلهم بموجبه الجنّة، ورضي عنهم، ونسبهم إليه بتسميته لهم: شعب الله المختار، الشعب اليهودي نسبة إلى ربهم «يَهْوَه».

ب ـ وبالنسبة للحضارة الرأسمالية الصليبية: فهي ليست أحسن حالاً من شقيقتها اليهودية في تعاملها مع الله، والإساءة إليه. فقد اتخذت من يسوع المسيح ربّاً، وبصفته ابن الربِ الإله، وعبدته من دون الله.

فقد ورد في إنجيل «متّى» في الإصحاح الرابع الجملة ثلاث: «فتقدم إليه المجرب» وقال له: «إن كنت ابن الله، فقل لهذه الحجارة أن تتحول إلى خبز».

وقد ورد في إنجيل «مرقص» في الإصحاح الثالث الجملة الحادية عشر: «وكانت الأرواح النجسة حين تراه، تخر ساجدة له صارخة: أنت ابن الله».

وقد ورد في إنجيل «لوقا» في الإصحاح الثاني الجملة الحادية عشر: «فقد ولد لكم اليوم في مدينة داوود مخلّص هو المسيح الرّب».

وقد ورد في إنجيل «يوحنا» في الإصحاح الثالث الجملة السادسة والثلاثين: «من يؤمن بالابن، فله الحياة الأبدية، ومن يرفض أو يؤمن بالابن لن يرى الحياة».

---

(١) ينظر بالنسبة لهذه النصوص: محمد الغزالي ـ قذائف الحق. ص ٣٠ ـ ٣٦.

وقد عبدت الأمم النصرانية المسيح بن مريم من دون الله، وسجدت، وصلّت، وصامت له؛ وذلك اعترافاً منها له؛ لأنه خلّصهم من تحمل وزْرِ خطيئة أبيهم آدم لعصيانه لربه، وأكله من الشجرة التي حرّمها عليه، وهو في الجَنة.

ح ـ **وبالنسبة للحضارة الرأسمالية البوذية**: فقد اختارت «بوذا» إلٰهاً لها، وربًا من دون الله، وقدّسته، وعبدته، وسجدت له، ولم ترض بديلا عنه ربّا، ودون منازع؛ حتى أنّه عندما تجرأ أحَد أتباعه البوذيين، وسأله عن هذه العقيدة، وهذه القداسة، وذلك بسؤاله عن الله؛ فقد غضب بوذا، وأنكر عليه سؤاله؛ حيث لم يكن هو نفسه يؤمن بالله؛ وأخبر السائل أنه يحدثّهم عن الآلام، والعذاب؛ ومن أجل ذلك يجب أن تنحصر الأسئلة فيها؛ وقد تفنن البوذيون في عبادتهم «لبوذا» وكل على طريقته.

فالبوذيون اليابانيون أشركوه بالميكادوا ـ وأحاطوه بهالة القداسة، وسجدوا له، وأطاعوه طاعة عمياء، وتجلّى هذا في تضحيات اليابانيين الكبيرة من أجل الميكادوا، وحياته؛ وذلك بإلقاء أنفسهم في نيران الأعداء، أو بطائراتهم ينزلون، وينقضّون بها، وهم فيها كما حصل أثناء الحرب اليابانية الروسية سنة ١٩٠٥ م؛ والحرب اليابانية الصينية في الثلاثينيات. والحرب اليابانية الأمريكية في العقد الرابع من هذا القرن.

وقد ترجم البوذيون عبادتهم بالسجود للأصنام، ومنها تماثيل بوذا، والامبراطور. وعندما تجرّأ رئيس بلدية ناغازاكي، ونفى القداسة عن الميكادوا، أطلقت عليه النيران. وأما الهندوس فقد ترجموا عبادتهم هذه بالسجود للأصنام، والبقر، والنار.

د ـ **وبالنسبة للحضارة الشيوعية الإلحادية**: فقد انكرت الإلٰه تماماً، وعبدت المادة بدلا منه من خلال شعارات: لا الٰه والحياة مادة. والدين أفيون الشعوب، والمادة هي التي تحكم التاريخ، ويخضع لها الدين.

يقول زعيم الإلحاد الشيوعي «كارل ماركس»، وبالحرف الواحد: «إن الدين كغيره من الحقائق الاجتماعية الأخرى هو وليد الحركة الاقتصادية للتاريخ؛ وإن الأفكار الدينية، والأخلاقية هي وليدة الأفكار البرجوازية، والانتهازية؛ والدين من جنسها برجوازي، استغلالي».

ويقول «لينين» مؤسس أول دولة شيوعية في روسيا سنة ١٩١٧ م، وبالحرف الواحد عن الإلٰه: «إنّنا لا نؤمن بالإلٰه؛ ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة، والإقطاعيين، والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإلٰه إلاّ استغلالاً، ومحافظة على مصالحهم. إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقات غير إنسانية من وراء الطبيعة، والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبقية. ونؤكد أن كل هذا مكر، وخداع؛ وهو ستار على عقول الفلاحين، والعمال لصالح الاستعمار، والإقطاع؛ ونعلن أن نظامنا الشيوعي لا يتبع إلاّ ثمرة النضال البروليتاري».

وترى الحضارة الشيوعية أن فكرة دين الإلٰه خدعة تاريخية، وأن العوامل التاريخية الممثلة في النظام البرجوازي الإقطاعي هي التي خلقت فكرة الإلٰه، ودينه؛ وبالتالي فليس هناك في الحقيقة دين، أو إلٰه، أو قيمٌ دينية، أو أخلاقية.

يقول فيلسوف الشيوعية «انجلز» في هذا الصدد: «إن كل القيم الأخلاقية هي من خلق الظروف الاقتصادية».

ويقول البيان الشيوعي: «إن الدستور، والأخلاق، والدين كلها خدعة برجوازية».

ويؤكد أصحاب الحضارة الإلحادية أَن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية، وطبيعية. فالإنسان بضعفه لم يستطع أن يتغلب على عوامل الطبيعة: كالأمطار، والفياضانات، والزلازل، والأمراض، فابتدع قوة فرضية سماها الإلٰه؛ وأسبغ عليها مظاهر القداسة، والقوة، والجبروت؛ ورأى فيها أنها الوحيدة التي تنقذهُ من عوامل الطبيعة؛ ولذلك آمن بهذه القوة، وهي الإلٰه إيماناً أعمى، وقدّس تعاليمه التي نسبها إليه، وهي الدين.

وأحياناً ينسبون فكرة وجود الإلٰه إلى اللاشعور الإنساني. أي إلى عوامل نفسية بدلا من التاريخية. وهذا ما حدث بالنسْبة «لفرويد» حين اكتشف أن اللاشعور قد يقبل أفكاراً، وقد يبتدع مفاهيم خيالية لا حقيقة لها، كالتي تتعلق بوجود الإلٰه، ودينه؛ ويشبه ذلك بفكرة الجنة، والنار التي يبتدعها اللاشعور خاصة عند الأطفال ثم تكبر إلى أن تصبح حقيقة، وبمثل هذا التحليل اللاشعوري أصّلوا تفسيرهم عن الله، والكون، والحياة، والإنسان.

وكما يقول «رالف لنتون»: «إن عقيدة القادر، المطلق، الظالم في نهاية الأمر الذي لا يرضى إلاّ بالطاعة العمياء، والكاملة الوفاء، كانت أول ما انتجه نظام المجتمع السامي. لقد خلق هذا النظام إلٰهاً جبروتاً غير عادي؛ وكانت نتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة، مفصلة عن المحرّمات في كل مجال من الحياة الإنسانية. وقد آمن بهذه القوائم الضخمة الناس العوام الذين كانوا يتقبلون أحكام، ومبادىء آبائهم العمياء، ويطيعونها. وما التصور الإلهي اليهودي إلاّ خيال مثالي لأب سامٍ مع شيء من المبالغة، والتجريد في الأوصاف، والطاقات».

وأحيانا يخضعون فكرة وجود الإلٰه، ودينه إلى عوامل سياسية، ومدنيّة، واجتماعية، وكما يقول محرر دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية تحت اسم الدين: «وبجانب المؤثرات الأخرى التي ساعدت في خلق الدين؛ فإن إسهام الأحوال السياسية، والمدنيّة عظيم جداً في هذا المجال. إن الأسماء الإلٰهية، وصفاتها خرجت من الأحوال هذه التي كانت تسود على ظهر الأرض. فعقيدة كون الإلٰه «الملك الأكبر» صورة أخرى للملكية الإنسانية. كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل عن الملكية الأرضية. وكان الملك الأرضي هو القاضي الأكبر ثم أصبح الإلٰه يحمل هذه الصفات، وأخذ يجازي الإنسان على الخير، والشر من أعماله. ومثل هذه العقيدة عن الإلٰه، وكونه محاسباً، ومجازياً لا توجد في اليهودية فحسب، وإنما لها مقامها الأساسي في العقائد الدينية الأخرى: كالمسيحية، والإسلامية».

وأحياناً ينسب أصحاب الحضارة الإلحادية فكرة وجود الإلٰه، ودينه إلى العقل البشري، وإلى بيئته. وكما يقول «جوليان هكسلي» وبالحرف الواحد: «لقد خَلَقَ العقلُ الإنساني الدينَ، وأتمّ خلقه في حالة جهل الإنسان، وعجزه عن مواجهة القوى البيئية الخارجية».

وكما يقول أيضاً: «فالدين الإلٰهي هو نتيجة تعامل خاص بين الإنسان، وبيئته».

وكما يقول أيضاً: «إن البيئة هي المسئولة عن الدين، ولكن بعد فنائها فلا داعي للدين. لقد انتهت العقيدة الإلٰهية إلى آخر نقطة تفيدنا؛ وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات؛ لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين؛ فجاء بالسحر، ثم بالعمليات الروحية، ثم بالعقيدة الإلٰهية، واخترع فكرة الإلٰه

الواحـد. وقد كان مثل هذه التطورات العقائدية مفيداً لنا في وقت ما، وجزءاً من حضارتنا، بيْد أنّها فقدت ضرورتها اليوم، وفقدت نفعها بالنسْبة للمجتمعات الحاضرة المتطورة».

هكذا تعاملت الحضارة الشيوعية الإلحادية مع الله، وأنكرت وجوده تماماً، وتنكرت لدينه إطلاقاً؛ ونسبت وجود الله إلى تخيّلات بشرية لا أساس لها من الصحة، وأصّلتها، ومن ثم أصّلت فكرة وجود الإلٰه إلى عوامل بشرية نفسية، ولا شعورية، وتاريخية، ومادية، وعقلية، وبيئية. والعجيب بالنسبة لأنصارها أي أنصار هذه الحضارة الإلحادية أنهم في إنكارهم للّه يتمتعون بقدرات خارقة في التحليل، والتدليل، والتلاعب بالألفاظ، والربط بين الأمور، والأحـداث، والتفلسف المنطقي السخيف في إثبات صحة دعاويهم الإلحادية. وهم بأساليبهم، وتحليلاتهم، وأدلتهم الإلحادية هذه مثلهم كمثل الذي يكتب شيكاً بلا رصيد، ورصيدهم زائف فعلا، ولا يقوى أبداً على مواجهة الحقائق العلميـة، والعقلية، والمنطقية، والكونيّة التي تؤكد في كل لحظة وجود الله، ودينه الذي أنزله على أنبيائه، ورسله؛ ليهدوا به خلقه من البشر، والمنكرون له هم من هؤلاء البشر للأسف.

إنّ الحضارة الرأسمالية تشارك نظيرتها الشيوعية في تكريس المفاهيم الطبيعية، والنفسية، واللاّشعورية المتعلقة بالإلٰه، وحقيقة دينه؛ والحضارة الرأسمالية أنجبت الكثير من العلماء، والمفكرين الطبيعيين، والدهريين أمثال: فرويد، ونيوتن، وكانت، وهكسلي، وهوبس، ولينتون، وهنري بريستد، وهيجل، وغيرهم ممّن أخطأوا، وأساءوا التعامل مع الله خالقهم؛ وأن فكرة الألوهية هي من ابتداع العقل، أو الغريزة الإنسانية، ومن ثم تبقى الطبيعة هي سيدة الموقف، وأن القانون الطبيعي هو الصالح لتفسير الحوادث الكونيّة؛ وبالتالي يظل الدين سبباً خيالياً نسب إلى الإلٰه الخيالي؛ ليستطيع العقل البشري تسلية نفسه في تفسيره للحياة؛ وهذا كله يخالف الحقيقة:

أ ـ فبالنسبة للطبيعة: فإنها تبقى حقيقة من حقائق الكوْن، وليست تفسيراً له. وإن ما كشف عنه هؤلاء الدهريون ليس بياناً لأسباب وجود الدين. فالدين مهمته أن يبين لنا الأسباب، والدوافع الحقيقية التي تدور وراء الكون؛ وما كشفوه هو الهيكل الظاهر للكون. إنّ العلم هو تفسير لما يحـدث، وليس تفسيراً لهذا الأمر الواقع. إن مضمون العلم هو إجابة عن السؤال: ما هذا؟! وليس لديه إجابة عن

السؤال؛ ولكن لماذا؟! وحتى تتضح الصورة نضرب مثلاً بتكون نجم من النجوم من عناصر عديدة: كالهيليوم، والكربون، والغازات الأخرى؛ فالدهريون بعلومهم يؤكدون أن هذا التكوّن هو عبارة عن تفاعل كيماوي بين هذه العناصر فقط؛ ولكن لماذا، وكيف حصل هذا التكوّن، وهل كان نتيجة صدفة، واتفاق بين هذه العناصر المكونة للنجم؟! فهذا لا يستطيع الدهريون الطبيعيون الإجابة عنه أو تفسيره.

ومثل ذلك: حقيقة تحوّل الغذاء إلى جزء من البدن. فالطبيعيون يقولون إنّ هذا التحوّل هو عملية كيماوية، ويقفون عند هذه الملاحظة. وهم لا يستطيعون الإجابة عن: لماذا حصل هذا التفاعل؟! وما هي القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلاً مفيداً؟! ومن المستحيل أن يتم التفاعل بين العناصر الكيماوية صدفة. وهل عملية التفاعل هذه تقتضي حتماً إبطال وجود الإله؟! وكما يقول البروفسور الأمريكي «سيسيل بايس هامان» استاذ البيولوجيا: «إن الغذاء بعد دخوله الجسم الإنساني يمر بمراحل عديدة خلاله نظام ذاتي محكم، ومن المستحيل أن يتحقق هذا النظام المدهش باتفاق محض. فقد صار حتماً علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة»(١).

فالطبيعة كما يقول البروفسور نفسه لا تفسر شيئاً من الكون، وإنما هي بحاجة إلى تفْسير.

فالطبَيعيون أنفسهم دوْماً يقفون عند: ما يحدث، ولا يستطيعون الإجابة عن: لماذا يحدث؟!!

فالطبيعة بالنسْبة إليهم هي الأشياء بذاتها: الجماد، والنبات، والحيوان، والإنسان، والأرض، والسماء، والماء، والجبال، والبحار، والأنهار، وغيرها من المخلوقات.

أو أنها صفات الأشياء هذه، وخصائصها: كالحرارة، والبرودة، والرطوبة، والجفاف، والصلابة، والليونة، والذكورة، والأنوثة. ومعنى هذا بالنّسْبة إليْهم: أن هذه الأشياء خلقت نفسها من نفسها. فالأرض خلقت

---

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ٣٠.

الأرض، والسماء خلقت السماء، والإنسان خلق الإنسان، والبحار خلقت البحار، وهكذا. وهذا من لغط القول. فإنه من المستحيل أن يُخلق شيء من غير سبب، ومن المستحيل أن يكون الشيء الواحد خالقاً؛ ومخلوقاً في آن واحد؛ فالسبب دوْماً غير المسبب. وبالنسبة لصفات الأشياء يستحيل أن تكون سبباً في خلق هذه الأشياء؛ لأنها في حدّ ذاتها أمور مخلوقة كالأشياء أوْجدها موجد، وخلقها خالق. إنّ صفات الأشياء لا تعي، ولا تدرك؛ فكيف تكون سبباً في خلق الأشياء، وتكوينها؟!! والصفات هي طبائع الأشياء؛ وبالتالي لنا أن نسأل عمّن طبع الأشياء على هذه الصفات؟! وكيف تؤثر هذه الصفات؟! ولماذا تؤثر، وتنفعل، وتحدث الانفعال في الأشياء؟!! اللهمّ لا مجيب. فالطبيعيون ينقلوننا من مجهول إلى مجاهيل. وكما يقول المرحوم سعيد حوى. وصفات الأشياء إن كانت سبباً في إيجاد أشيائها، فهي بالتالي بحاجة إلى سبب إيجادها ذاتها. ومن هنا يتشابه الدهريون الحديثون مع الدهريين القدماء في قولهم إن الطبيعة خلقت الطبيعة، وإنها الإلٰه الخالقة لذاتها؛ والعلة النفسية واحدة؛ والخطأ واحد عند القول بأن الطبيعة، أو الأصنام آلهٰة، وخالقة لهذا الوجود. وأن الدهر هو المحيي والمميت، وأن الأصنام هي الرازقة، والممطرة، والشافية، والممرضة، والموفِقة، والخالقة. ويعبّر القرآن الكريم عن مثل دعاويهم هذه بقوله تعالى على ألسنتهم: **﴿وقالوا مَا هيَ إلاَّ حَياتُنا الدُّنيا نَمُوتُ وَنَحيَا وَمَا يُهلِكُنَا إلاَّ الدَّهرُ وَمَا لَهُمْ بِذلكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَظنّونَ﴾** [سورة الجاثية: ٢٤].

ب ـ وبالنسبة للاّشعور الإنساني: فإنه يستحيل أن تكون فكرة الإلٰه، ودينه من نتاج هذا اللاشعور؛ لأنه ليس سوى مخزنٍ للمعلومات، والمشاهدات التي شاهدها الإنسان من قبل، ولو مرة واحدة في حياته؛ ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل. وأن الدين الذي يكرس فكرة الإلٰه، والذي جاء على لسان الأنبياء، والرسل يشتمل على حقائق، ومعلومات أبدية لا يعلمها، ولم يعلمها الناس من قبل. فلو كان اللاشعور هو أساس فكرة الإلٰه، ودينه فكيف له وكيف لأصحابه أن يأتوا بمثل المعلومات التي جاء بها الأنبياء عن الله؟!! ولو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات فكيف لأصحاب هذا اللاشعور أن يأتوا بمعلومات لا طريق لهم إلى العلم بها؟!!.

إن مشكلة الحضارتيْن الماديتيْن الرأسمالية، والشيوعية في تعاملهما القبيح

مع الله تكمن في أنهما تربطان حقيقة وجوده بالتجربة، والملاحظة على اعتبار أن كل حقيقة يجب أن ترتبط بالتجارب، وبحيث يمكن فحصها، أو إثباتها بصورة مباشرة، أو غير مباشرة. فالعلم الحديث لا يؤمن إلاّ بالمحسوس المشاهد؛ وهم بكفرهم أخضعوا حقيقة إثبات وجود الله لمثل هذه السفسطة غير المنطقية، وغير العقلانية. لقد قالها أنصار الحضارات المادية قديماً، وقد قالوها حديثاً: لا نؤمن بالله إلا إذا رأيناه جهرة. وقد أكدّ القرآن ادعاءهم هذا بقوله تعالى: ﴿**فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً**﴾ [النساء: ١٥٣].

لقد كفروا بوجود الله؛ لأنهم لم يدركوه بحواسهم؛ لأنهم لم يروهُ جهرة؛ ولأنهم لم يكلّموه، ولم يكلمهم مشافهة؛ وهم بذلك يضعون أنفسهم في أشد تناقضاتهم؛ فهم آمنوا بحقائق خَلْقية كثيرة مع أنْهم لم يروها: كالجاذبية، وقوانينها، والعقل، والمغناطيسية، والكهرباء، والذرّة، والإلكترون، والنيترون؛ فهم لم يروها بأحاسيسهم. ولكنهم عاينوا آثارها، فآمنوا بوجودها. إن قانون الجاذبية لا يمكن ملاحظته بتاتاً، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية، وإنما هي أشياء أخرى جعلتهم منطقياً يؤمنون بوجود هذا القانون. وها هو «نيوتن» نفسه صاحب هذا القانون يعترف بهذا في خطاب أرسله إلى «بنتلي»، فيقول: «إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها، ولا إحساس، وهي تؤثر على مادة أخرى، مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما».

ونفس القول بالنسبة للعقل، فهو لا يُدرك بالحواس، ويُعرف فقط بآثاره، ومؤشراته التفكيرية، فإن انعدم التفكير انعدم العقل.

وكذلك المغناطيسية لم تدرك بالحواس، وتعرف بآثارها الجذبية كانجذاب الحديد إلى الحديد وكذلك الكهرباء لم يرها أحد، وإنما تعرف بمؤشراتها الطاقوية عندما تعطي النور أو تحرك الآلات. وكذلك نواة الذرة، والالكترون، والنيترون، وحتى الذرة نفسها لم تدركها حواسهم، وإنما علموها، وعرفوها بآثارها الحركية الطاقوية بالانفلات، أو بالتجمع.

ولنا أن نسألهم في هذا المقام: هل عدم إدراك هذه الحقائق بالحواس ينفي وجودها؟! وبالتالي هل عدم رؤية الله بالعين المجردة، ينفي وجوده؟!! وهل بالضرورة أن ندرك الله بحواسنا حتى نؤمن به؟!! ولماذا لا نؤمن به، وآثاره الدالة

على وجوده، وحقيقة وجوده كثيرة، ولا حصر لها، ومنها أنفسهم، وحقيقة تكوينهم، وخلقهم، وأجهزة أجسادهم؟!!.

لا نبالغ لو قلنا: إن كل مخلوق في هذه الأرض، وإن كل شيء من مكونات هذا الكون آية على وجود الله. قال تعالى: **﴿وَفي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾** [الذاريات: ٢٠].

وقال تعالى: **﴿وَفي أَنفُسِكُمْ أَفلا تُبْصِرونَ﴾** [الذاريات: ٢١].

قال الحافظ ابن كثير: «وفي الأرض آيات دالة على عظمة خالقها، وقدرته الباهرة؛ مما فيها من صنوف النباتات، والحيوانات، والجبال، والقفار، والبحار، والأنهار، واختلاف ألسنة الناس، وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول، والفهوم، والسعادة، والشقاوة، وما في تركيبهم من الخَلْق البديع»[١].

وبالنسْبة للآية الثانية: يقول ابن عباس: «يريد اختلاف الصور، والألْسنة، والألوان، والطبائع، والسمع، والبصر، والعقل إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم»[٢].

وقال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه، عرف أنه إنما خلق، وليّنت مفاصله للعبادة»[٣].

إنّ علماء حضارة رأس المال، والإلحاد غير عقلانيين، وغير منطقيين عندما يشترطون إدراك حواسهم لله ليؤمنوا به؛ وهم يعلمون أن حقائق المعرفة التي توصلوا إليها إنما علموها بآثارها، ولم يشاهدوها بأعينهم. فلماذا عندما يتعلق الأمر بمعرفة الله يشترطون رؤيته؟!! وهل كل حقيقة علمية تكشفها الحواس؟!! أليست الحقائق الرياضية، وكثير من الحقائق الكونيّة لا طريق إلى العلم بها إلاّ العقل، والعلم، والتفكر، والتدبر، والتأمل، والتحليل، والربط؟!! لقد أساء علماء الكفر التصور الحسي للطريق إلى معرفة الله تعالى؛ لأن الإدراك الحسي للإنسان يصل فقط إلى حقيقة وجود المادة، ولكنه لا ينظر إلى أبعد من ذلك. يقف عاجزاً عن إثبات حقائق ما وراء المادة. وهم يعلمون أن المادة مخلوقة، ويستحيل أن تخلق نفسها، ولا بد لها من خالق؛ ولا بد لهذا الوجود من خالق؛

---

(١) محمد علي الصابوني ـ مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٨٤.

(٢)(٣) الخازن ـ تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل. جـ ٤ ص ٢٠٣.

ولا بد لأنفسهم بأجهزتها المعقدة من خالق؛ ولا بد لهذا الكون بمخلوقاته، ومكوناته، ونجومه، وشموسه، وكواكبه، وأراضيه، وسماواته من خالق. وإن أُولى أجهزة، ووسائل معرفة الخالق الفطرة، والعقل، والعلم، والتفكر، والآثار. وبالفطرة عرف الإنسان ربّه، وعلم أن له خالقاً خلقه. وقد آزر عقله فطرته في إيمانه بربه. قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بني آدمَ مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِيَتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلَى شَهِدْنا أَنْ تقُولوا يَوْمَ القِيامَةِ إنّا كُنّا عَنْ هذا غافِلينَ﴾** [الأعراف: ١٧٢].

قال الطبري: «أيْ واذكر يا محمد إذْ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض بذلك»[١].

وقال ابن عباس: «مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة»[٢].

لقد قدّر الله خَلْقه من أولاد آدم فطرياً على الايمان به، وتوحيده؛ ونصب لهم الأدلة على ربوبيته، ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم، وبصائرهم، وهذا من باب التمثيل، والتخيل؛ وجعل عقولهم، وبصائرهم، مؤمنة بخالقها، وشاهدة على نفسها، وبحيث عندما سألهم ربهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. وبذلك كل نفس مخلوقة تعلم بالفطرة أنها مخلوقة ضعيفة لا حول لها ولا قوة؛ وأن هناك قوة عظيمة قادرة على الخلق هي ربها. ومثل هذه المعاني يقولها الزمخشري، وأبو حيان، وأبو السعود، وغيرهم من كبار المفسرين. وبالفطرة، والعقل آمن العوام من الناس بربهم. وكما قالوا قديماً: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على صاحبه، والدخان يدل على النار.

وكما قالوا أيضاً: أليست الأرض ذات الفجاج، والسماء ذات الابراج، والبحار ذات الأمواج تدل على الله الواحد القهار؟!!

ونقولها حديثاً: أليس العقل، والعلم، والتفكر، والتأمل، والتدبر، بآيات الله تدل على الله خالقها؟!! أليست الحقائق الكونية، والنفسية الآدمية آيات تدل على الله خالقها؟!!

---

(١)(٢) محمد علي الصابوني - صفوة التفاسير جـ ١ ص ٤٨١.

قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آياتِنَا في الآفاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لهُمْ أَنَّهُ الحقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ**﴾ [فصّلت: ٥٣].

لقد أراهم الله من أياته الكثيرة في الآفاقِ، وفي أنفسهم، وبدلا من أن يؤمنوا بالله ازدادوا عن الله بعداً؛ بسبب أنهم لم يروُا الله جهرة. وهنا يكمن الفرق بين حضارة الأمس في تعاملها مع الله، وبين حضارة اليوم. إذ أن هذه الأخيرة هي حضارة علم؛ فكانت جريمتها الحضارية أعظم. فقد علّمهم الله، وهداهم إلى اختراع وسائل العلم العديدة، والمتقدمة، وعلى رأسها وسائل الاتصال من صواريخ، ومركبات فضائية، ووسائل تصوير دقيقة اكتشفوا بها آيات ربهم المذهلة في دقة صنعها، وانتظامها، وعملها، وعلاقاتها، ومع ذلك لم يسخّروها في الاقتراب من الله بل سخرّوها في التنكر له، ومحاربته، والكفر به. لقد قال تعالى معبراً عن تكريمه لخلقه من بني آدم في مجال التنقل، والمواصلات: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنا بني آدَمَ وحَمَلْناهُمْ في البَرّ والبَحْرِ وَرَزَقناهُمْ مِنَ الطَّيّباتِ وَفَضّلْناهُمْ على كثيرٍ ممّنْ خَلَقْنا تَفضيلا**﴾ [الإسراء: ٧٠].

إنّ أفضل تكريم إلهي لآدميّ في مجال الحمل، والتنقل في البر، والبحر، والجو قد تمّ أول ما تمّ لاثنيْن في أواخر هذا القرن؛ أحدهما شيوعي ملحد هو الروسي «يوري غاغارين»؛ والآخر نصراني كافر هو الأمريكي «نيْل أرمسترونغ».

فبالنسبة للأول «يوري غاغارين» ـ فقد حملته العناية الالٰهية لأول مرة في التاريخ الإنساني سنة ١٩٥٩م بمركبته الفضائية إلى خارج غلاف الكرة الأرضية، ودار حولها مئات المرات، ورأى هو وطاقمه على الأرض آيات ربهم الكونيّة، والتي لا تحصى، ومنها كرويّة الأرض، وتعلقها في الفضاء بلا عمد، ودورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، ودوران القمر حولها، ومدارها أي فلكها الذي تسبح فيه، والذي لا تتعدّاه، وحقيقة أن كل نجم، وكل كوكب يسبح في فلك لا يتعداه، والمؤصلة في قوله تعالى: ﴿**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغي لها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللّيْلُ سَابقِ النّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠].

وقيل: أنه صرخ متسائلاً: مَنْ علّقها؟!! وإن لم يقلها صراحة، فقد قالها ضمنا. وعندما نزل على الأرض سأله الصحافيون عمّا رآه، واكتشفه، فقال ساخراً: كنت أفتش عن الله، فلم أجده. ويشاء القدر أن يصعد في طائرة تدريب

صغيرة، وإلى علو غير عالٍ ثم تهبط، وتتحطم به فيموت، ويدفن ليرى الله في القبر إن لم يره في سمائه كما يزعم.

وبالنسبة للثاني ـ «نيل أرمسترونغ» ـ فقد حملته العناية الالٰهية سنة ١٩٦٩ بمركبته الفضائية، ونزل بها على سطح القمر لأول مرة في تاريخ الإنسانية؛ ورأى وهو في السماء، وطاقمه الذين على الأرض من آيات ربهم الكونيّة ما رأوْا، ومنها: مكونات تربة القمر، وصخوره، وجاذبيته التي تبلغ سُدس جاذبية الأرض وبراكينه، وغازاته، ودرجات حرارته، وبرودته، وغيرها، ولكنه هل آمن؟!! أبداً لقد ازداد عن الله بعداً؛ وأصر على كفره، وتمسك بعقيدته الثلاثية، وبأن الرب هو يسوع المسيح، وهو يعلم، والنصارى يعلمون في قرارات أنفسهم أن المسيح مخلوق مثلهم، وأنه لا يغني عنهم من الله شيئاً.

إن إنكارهم لربهم، لحقيقة خالقهم لا يعتبر حضارة، ولو بلغوا عنان السماء مدنياً، وهو لا يعتبر علمًا خالصا، وإنما جهالة، وينطبق عليهم قول ربهم: **﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللّهِ بِغَيرِ عِلْمٍ ولا هُدًى وَلا كِتابٍ مُنيرٍ﴾** [الحج: ٨]. [لقمان: ٢٠].

إنها الجهالة بعيْنها، وإنه عدم العلم بذاته أن يشترطوا للإيمان بربهم أن يكلمهم مشافهة، أو من وراء حجاب كما قال ربهم: **﴿وَقَالَ الّذينَ لا يَعْلَمُونَ لوْلا يُكَلّمُنا اللّهُ أَو تأْتينا آيةٌ كذَلِكَ قَالَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مثلَ قَوْلهِمْ تَشابَهَتْ قُلوبُهُمْ قَدْ بَيّنا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنونَ﴾** [البقرة: ١١٨].

وإنّهُ الاسْتكبار بعيْنه أن يشترطوا رؤية ربهم ليؤمنوا به كما قال تعالى على لسانهم: **﴿وَقَالَ الّذينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنا لوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنا الملائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا في أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عتوّاً كبيراً﴾** [الفرقان: ٢١].

قال أبو حيان في تفسيره: «وهذا كله على سبيل التعنت؛ وإلاّ فما جاءهم به من المعجزات كافٍ لو وُفِّقُوا»[1].

وإنه الكِبْرُ بذاته أن لا يؤمنوا بربهم، ويجادلوا في صحة آيات الله بغير حجة، ولا برهان كما قال ربهم فيهم: **﴿إنَّ الّذِينَ يُجادلُونَ في آياتِ اللّهِ بِغَيْرِ**

---

(١) أبو حيان ـ تفسير البحر المحيط ـ جـ ٦ ص ٤٩١.

سُلْطانٍ أَتَاهُمْ إنْ في صُدُورِهِمْ إلاّ كِبْرٌ مَا هُمْ ببَالِغيه فَاْستَعِذْ بِاللّهِ إنّهُ هُوَ السميعُ البصيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. وإنّه الإفكُ، والبهتان أنّ يجحـدوا بآيات ربهـم، ولا يؤمنون به كما قال تعالى فيهم: **﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الذينَ كانوا بِآياتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾** [غافر: ٦٣].

قال الصاوي: «وهذه تسلية للنبي ﷺ والمعنى لا تحزن يا محمد، على إنكار قومك فإن مَن قبلهم فعل ذلك»[١].

وإنه الصَّـرْفُ عن الحـق أن لا يؤمنـوا بربهـم، ويجادلون في صحة آياته كما قال تعالى فيهـم: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الذينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللّهِ أَنّى يُصْرَفُونَ﴾** [غافر: ٦٩].

وإنّه التجبّر، والمقت أن لا يؤمنوا بربهم، ويجادلون في صحة آياته بغير سلطان، ولا برهان كما قال تعالى فيهـم: **﴿الذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللّهِ بغَيْرِ سُلْطانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ الذينَ آمَنُوا كذلِكَ يَطْبعُ اللّهُ على كِلِّ قلْبِ مِتَكبِّرٍ جَبَّارٍ﴾** [غافر: ٣٥].

وإنّه الصّدُّ عن سبيل الله، والتزيين الشيطاني لسوء عمل فرعون بأن يطلب هذا الاطلاع إلى السموات العلى ليرى إلٰه موسى كما قال تعالى فيه: **﴿وقالَ فِرْعَوْنُ يا هَامَانُ ابْنِ لي صَرْحاً لَعَلّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ، أَسْبابَ السَّمواتِ فَأَطَّلِعَ إلى إلٰهِ مُوسَى وَإِنّي لأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاّ في تَبابٍ﴾** [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

قال القرطبي: «لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح»[٢].

وإنّه الظلم بعيْنه عندما يطلب اليهود رؤية الله ليؤمنوا به كما قال تعالى على لسانهم: **﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ منْ ذَلِكَ فَقالُوا أَرِنا اللّهَ جهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾** [النساء: ١٥٣].

---

(١) الصاوي ـ حاشية تفسير الجلالين ـ جـ ٤ ص ١٣.

(٢) القرطبي ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن جـ ١٥ ص ٣١٤.

قال أبو السعود: «وهذه المسألة وهي طلب رؤية الله ـ وإن صدرت عن أسلافهم، لكنهم كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون»[1].

ودحضاً لافتراءات حضارات الكفر الرأسمالية، والشيوعية عن الله يؤصل القرآن الكريم الطريق السويّ لمعرفة الله من آياته، وذلك بالعقل، واللباب، والعلم، والتفكر، والتذكر، والتأمل، والنظر، والتدبّر، والتبصّر فقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد: ٤].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السّمواتِ والأرضِ وَاختلافِ اللّيلِ والنّهارِ لآياتٍ لأُوْلي الألْبابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠]

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ في ذَلكَ لآياتٍ للعالَمينَ**﴾ [الروم: ٢٢]

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ في ذلكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَتفكَّرونَ**﴾ [النحل: ١١].

وقال تعالى: ﴿**أَفَلاَ تَتَذَكرُونَ**﴾ [السجدة: ٤].

وقال تعالى: ﴿**قُلِ انظُرُوا ماذَا في السّمواتِ وَالأرْضِ**﴾ [يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أَقفالُها**﴾ [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿**وَفي أَنْفُسِكُمْ أفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢١].

لقد انحدرت حضارتا الكفر الرأسمالية، والشيوعية في تعاملها مع الله إلى أدنى درجات الانحطاط، فظلتا بدون حضارة، وظل أصحابها أهل مدنيّة فقط. أو قل: أهل حضارة مادية ليس إلاّ. ولذلك أثبت الله لأنصار الحضارة الرأسمالية كفرها بالله بإشراكها المسيح به، فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ المَسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ [المائدة: ١٧].

وأثبت لأنصار الحضارة الشيوعية كفرها بالله، وإلحادها به فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الذينَ يُلْحِدُونَ في آياتنَا لا يَخفَوْنَ عَلَينا**﴾ [فصلت: ٤٠].

إنّ العقل الياباني البوذي، والذي اخترع الترانزستور متقدم مدنياً، ولكنه متخلف حضارياً، لأنه ما زال يعبد «بوذا»، ويسجد للشمس، ويقدس الميكادو.

إنّ العقل الفرنسي المسيحي، والذي اخترع الهليوكيبتر متقدم مدنيًا، ولكنه

---

(١) أبو السعود ـ تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ ١ ص ٣٩٤.

متخلف حضارياً، لأنه ما زال يكفر بربه، ويعبد المسيح من دونه.

إنّ العقل الألماني النصراني، والذي اخترع الصاروخ متقدم مدنياً، ولكنه متخلف حضارياً، لأنه ما زال يشرك بربه، ويؤله المسيح من دونه.

إنّ العقل الانجليزي البروتستانتي، والذي اخترع الآلة الغازية، والبخارية متقدم مدنيًا، ولكنه متخلف حضاريا، لأنه ما زال يكفر بربه، ويؤمن بعقيدة التثليث من دونه.

إنّ العقل الإيطالي الكاثوليكي، والذي اخترع الراديو متقدم مدنيّاً؛ ولكنه متخلف حضارياً؛ لأنه ما زال يكفر بربه، ويعبد بابا روما من دونه.

إن العقل الأمريكي الكاثوليكي، البروتستانتي، الأرثوذكسي، والذي اخترع الكمبيوتر متقدم مدنيًا،ولكنه متخلف حضارياً؛ لأنه ما زال يتنكر لربه، ويفصل الدين عن الدولة.

إنّ العقل الروسي الارثوذكسي الشيوعي، والذي اخترع القمر الصناعي متقدم مدنيًا، ولكنه متخلف حضارياً، لأنه كفر بربه، وألّهَ المادة من دونه.

إنّ العقل الصيني الوثني، والذي بنى سور الصين العظيم متقدم مدنيًا، ولكنه متخلف حضارياً، لأنه ما زال يجحـد ربه، ويؤله امبراطوره «ماوتسي تونغ»، وإلهه بوذا.

إنّ العقل الهندوسي المجوسي، والذي شيّد منارة قطب الدين في نيودلهي متقدم مدنيًا، ولكنه متخلف حضارياً، لأنه ما زال يشرك بربه، ويعبد النار، والبقر، ويؤلّه صنمه «رام».

إنّ حضارات الكفر المادية الرأسمالية، والشيوعية أساءت التعامل مع الله بعدم الإيمان به، فتبقى حضارات مادية متخلفة، ويبقى أصحابها من يهود، وصليبيين، وبوذيين، ووثنيين غير متحضرين، ولو كانوا أصحاب مدنيّة متقدمة.

إساءة الحضارة الرأسمالية والشيوعية إلى الله من خلال نظرتهما إلى الإنسان

لقد أساءتا تعاملهما مع الله من خلال نظرتهما إلى حقيقة خلق الإنسان، وغرض وجوده. ولقد استندتا في تحليلهما، وتأصيلهما للحقيقة الإنسانية هذه إلى معايير التفسيرات المادية للحقائق بعيداً عن كل تفسيرات روحانية، أو حتى علميـة، أو منطقية، أو عقلانية سليمة.

لقد سيطر التعصب المادي على عقول مثقفي، وعلماء الحضارة المادية، وخاصة في نظرتهم للأمور الخَلْقية، وعلى رأسها حقيقة وجودهم. بهذا المعنى يقول أعظم علماء المادة في العصر الحديث العالم البريطاني «جيمس جينز» في كتابه الشهير: «عالم الأسرار» : «إنّ في عقولنا تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق»[1].

وتأكيدًا لمثل هذه التفسيرات المادية للحقائق يطرح العالم الرياضي البريطاني «برتراند رسِل» مفهومه المادي عن الإنسان بقوله: «والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف. إنّ بدءه، ونشأته، وأمانيه، ومخاوفه، وحبّه، وعقائده كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذّرة؛ والقبر ينهي حياة الإنسان؛ ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى. إن هذه المجهودات الطويلة، والتضحيات، والأفكار الجميلة، والبطولات العبقرية كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي.

إنّ الكفاح الإنساني كله سوف يدفن حتماً مع الأرض تحت أنقاض الكوْن. ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية، فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة. حتى أن أي فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فناءها تلقائيا»[2].

---

(١)(٢) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ـ ص ٣٨.

إن العالم البريطاني «برتراند رسِل» يطرح هنا خلاصة الفكر المادي لوجود الإنسان على الأرض، وبلا هدف، وبلا غرض اللهم أن ينتظر حتفه، ودفنه في القبر. كان من الأجدر بهذا العالم الرياضي أن يترفع بفكره قليلا عن المادة في تحليله لحقيقة خلق الإنسان؛ إن هذه المادة هي التي أعمت بصيرته الرياضية عن التفكير في الروحية في الحكم على الأمور، وتبعاً لطرحه المادّي هذا فلتبقى الإنسانية في ظلام حالك، وليُقتل الإنسان طوعاً، أو كرهاً ما دام لا غرض لوجوده إلاّ ما يحققه، وما ينجزه من أغراض مادية، ومنها ما أنعم الله عليه من نعمة التفكير الرياضي، وهو من أشهر علماء الرياضيات في هذا القرن على الإطلاق؛ وله سمعته العالميـة في مجال حقوق الإنسان، وقد تزعم محكمة عالميـة دولية لمحاكمة رؤساء الولايات المتحـدة الأميركية، ومنهم «جونسون» و «نيكسون» على جرائمهم في الفيتنام؛ ومن الغريب أن هذه الجرائم الإنسانية تدخل تحت تحليلاته المادية بأن لا غرض لوجود الإنسان، ولعل بعض العلماء يعتقدون أنهم وصلوا إلى الحقيقة بمجرد تصديق بعض القوانين الرياضية لأفكارهم؛ ويتناسى هؤلاء العلماء، ومنهـم «براترند رسِل» أن الوصول إلى الحقيقة لا يتم إلاّ بتصديق العقل، والفطرة للنبوءات الروحية عن حقيقة الإنسانية، وغرض وجودها؛ وأن الله ـ وهو الذي خلقها ـ أوحى لها ما يجب أن تقوم به، ولا سيما وهم يعلمون أن الإنسانية لم تخلق نفسها؛ لأنها مادة، والمادة لا تخلق نفسها، ولا بد لها من خالق؛ لأنها مخلوقة.

ولكنّ الذي يندى له الجبين أن يعرض مثل هؤلاء العلماء الماديين وجهات نظرهم العلميـة حول حقيقة وجود الإنسان بوجه فكري قبيح، وعقول مادية موصدة أمام أية أفكار، وعقائد روحية أو نصوص إلهية، أو حقائق دينية، أو مبادىء وحييّة، أو مفاهيم سماوية.

لقد قالها. انجلز، وهوبس، وماركس، ولينين: لا اله والحياة مادة.

ولقد قالها استاذ امريكي في طب الأعضاء: «لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى، وأسوأ خدعة في التاريخ»[١].

ولقد قالها «جوليان هكسلي»: «إن فكرة النبّوة هي إظهار للتفوق بطريقة

---

(١) وحيد الدين خان ـ نفس المرجع ص ٢٨.

شـاذة لا يمكن احتمالها»[1] . إذا أن الإيمان بنبيّ يقتضي الإيمان بأن ما يأتي به هو كلام الله، أو من عند الله، وهذا ما لا يمكننا قبوله. إن تعصبهم الأعمى للمادة جعلهم يؤمنون بعقائد، ونظريات عن خَلْق الإنسان تنقصها الأدلة، والبراهين، ومنها نظرية التطور العضوي؛ أو فيما يسمى بنظرية النشوء والارتقاء؛ والذي دفعهم إلى ذلك حرصهم على عدم الإيمان بالله: وكما يقول كثير من هؤلاء العلماء الماديين: إنهم لا يؤمنون بنظرية التطور العضوي إلاّ لأنه لا يوجد بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرة. ويشهد على قولهم، وموقفهم المادي هذا أحـدهم، وهو «سير آرثر كيت» حيث يقول بالحرف الواحـد: «إنّ نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان. ونحن لا نؤمن بها إلاّ لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخالق، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه»[2] .

إن تعجب، فعجب قولهم: إن التعصب الأعمى للتفسير المادي لحقيقة الله، والدين، والنبوّة، والإنسان يخلّصنا من سيطرة العقيدة الالهية المعقولة على عقولنا، وأفكارنا. وذلك وكما يقول «جورج بلوتن»: «إنهم يظنون أن الإيمان بالله سوف يقضي على حريتهم الفكرية، تلك الحرية العقلية التي استبعدت عقول العلماء، واستهوت قلوبهم؛ ولذلك فإن أية فكرة عن تحـديد هذه الحرية أمر مثير للقباحة، والوحشيّة عندهم»[3] .

إنّ الحرية الفكرية التي يرتأيها علماء التفسير المادي لحقيقة خَلْق الإنسان هي التي أَمْلَتْ على العالم الطبيعي «داروين» أن يتجرأ على الله، ويستلهم من لبنات عقله نظريته المشهورة: نظرية النشوء والارتقاء، والتي بموجبها يكون أصل الإنسان قرداً، وتصبح الحيوانات الصغيرة ذات الظلف حيوانات عملاقة كالزراف. فهو يقول موضحاً نظريته في الباب التاسع من كتابه: «ومن الأمور الحتمية عندي أنه إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذي ظلف عادي حيواناً مثل الزراف»[4] .

ومن العجيب أن يصدقه الكثير من العلماء، وبكل سهوله، وكما قال

---

(١)(٢)(٣) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ٣٩.

(٤) وحيد الدين خان. نفس المرجع ص ٩١.

«ماندير»: «لقد ثبت صدق هذه النظرية حتى أننا نستطيع أن نعتبرها أقرب شيء إلى الحقيقة»[1].

وكما قال «سمبسن»: «إن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة، وأخيرة، وكلية، وليست بقياس، أو فرض بديل صيغ للبحث العلمي»[2].

ويقول محرر دائرة المعارف البريطانية سنة ١٩٥٨م: «إن نظرية الارتقاء في الحيوانات حقيقة، وإن هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء، والمثقفين بعد داروين»[3].

وكما قال «ر. س. لل»: «ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد يوماً بعد يوم بعد داروين حتى أنه لم يبق لدى المفكرين، والعلماء في أن هذه هي الوسيلة المنطقية الوحيدة التي تستطيع أن تفسر عملية الخلق، وتشرحها»[4].

إن «داروين» يؤمن بالخالق، ولكنه ينكر علاقته بمخلوقاته. ومن ثم يفسّر عملية الخلق تفسيراً مادياً يستند إلى الصدفة، وإلى افتراضات وهمية لا حقيقة لها، ولا تسعفها الأدلة. وهذا ما يمكن نقضه بالمنطق الفكري العلمي، والمنطق الروحي النصي.

أ ـ فبالنسبة للمنطق الفكري العلمي: إن الخليّة الحيوانية تحتاج في نموها، وتطورها إلى بلايين من السنين حتى يتسنى مجرد إمكان لحدوث جزئي بروتيني فيها بالصدفة. فكيف لنا أن نفسر وجود ملايين الحيوانات، وكيف جاء منها، ومن أجناسها هذا المخلوق المسمى إنسان؟!! إن نظرية داروين في النشوء، والارتقاء لا تستطيع الإجابة عن مثل هذه التساؤلات؛ هذه النظرية التي تنبني على أساس تغيّرات محضة في عملية الخلق، والتي حسبها الرياضي «باتو»، وانتهى إلى أن اكتمال تغيّر جديد في جنس ما قد يستغرق مليوناً من الأجيال[5].

إن «تشارلز داروين» يقيم نظريته التطورية على أساس فرضيْن اثنيْن:

الفرض الأول: أن العضويات الصغيرة في كل جيل من الأجيال تنزع دائماً

---

(١)(٢)(٣)(٤) ـ وحيد الدين خان ـ نفس المرجع. ص ٤٤.

(٥) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ٧٠

إلى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها في جميع الاتجاهات الممكنة.

الفرض الثاني: أنّ التغيرات المفيدة تورث الأجيال التالية، وتتراكم نتائجها حتى ينتج عنها تغيرات جسميـة.

وبناءً على هذيْن الفرضين يصبح بالإمكان أن توجد أجيال من القرود تختلف عن السابقة، ومتقدمة عنها، وتحمل تغيرات وراثية راقية تؤدي في نهاية المطاف إلى جيل أرقى من أجداده القرود، وهذا الجيل هو الإنسان. وهذا من قبيل الافتراض الوهمي لا غير. لأن ما يحـدث من تغيرات وراثية وراقية قليل الحـدوث، وغير منتظم، أو راتب. وإن مثل هذا التغير في الصفات الوراثية لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة كما أثبت ذلك العالم الرياضي «باتو».

وكذلك فإنه يترتب على حـدوث مثل هذه التغيرات تكوّن حلقات سلالية متتابعة من الأجيال تتوسط أجيال القرود والإنسان. أي لا بد من ظهور مخلوقات هي بين القرد، والإنسان، والذي يسمونه بالحلقة الضائعة، وهي التي لم يجدوها إلى الآن رغم بحثهم عنها في أدغال أفريقيا على اعتبار أن بعض أنواع من القرود، وهي الشمبانزي قريبة الشبه بالإنسان الافريقي، وبالتالي يمكن أن يوجد المخلوق الذي هو بين القرد، والإنسان في إفريقيا.

إنهم تناسوا أن مثل هذه الحلقات التوسطية غير موجودة، ولا يمكن أن يثبت أن شكلاً من الكائنات يُشكل حلقة حقيقية. ويقول «ليكونت دي نوي» في هذا المعنى: «إن كلمة حلقة ذات أهميـة كبرى في تاريخ الكائنات الحية؛ إذ لا يمكن إثبات أن شكلاً من الكائنات يشكل حلقة حقيقية. وعلى أية حال يمكن القول: إنه ليس هناك شكل يعيشه حالياً وهو سلف مباشر لشكل آخر. فالإنسان لم ينحـدر عن القرد. وإن كثيراً من الأشكال التي تدعى أشكالاً وسطية ليست سوى محاولات غير ناجحة للتكيف، وقد تكون معاصرة، أو سابقة، أو تالية للأشكال الانتقالية الحقيقية»[١].

إنّ الحلقة التي يستشهدون بها كأهم حلقة متكاملة من حلقات التطور هي

(١) سعيد حوّى ـ الله. ص ٥٢.

حلقة روابط التسلسل عند الحصان، إذا قدّموا ستة أشكال وسطية تبتدىء بالحصان الهيراكوثيريوم، وتنتهي بالحصان الحالي؛ ولكن هذه الأشكال الوسطية تبدو، وكأنها ظهرت فجأة؛ لأنه لم يعرف الجسر الذي يربط بين هذه الأشكال الوسطية أو أن أي منها هو سلف مباشر للذي قبله. فكل من هذه الأشكال الوسطية تضم مخلوقا هو الحصان، ولم يثبت علمياً أنه تطور من غير الحصان، أو أنه سيتطور إلى جمل.

وهناك نقض ثان لنظرية داروين يتعلق بالتركيب الكيماوي لمادة الهيموجلوبين؛ وهي الصبغة الحمراء الموجودة في دم الحيوانات؛ وحيث أن تركيبها يختلف من حيوان لآخر، وخاصة فيما يتعلق بنسب المواد المعدنية التي يحتويها الدم؛ وبذلك يستحيل الانتقال الكيميائي من حيوان لآخر، وبالتالي يستحيل أن يتوالد الإنسان من القرد.

وهناك نقض ثالث لهذه النظرية يتعلق بعدد الكروموسومات بحيث يبلغ عددها في دم القرود ٤٨ بينما في دم الإنسان ٤٦؛ وبالتالي يستحيل أن يحصل تزاوج بين مخلوقات تختلف نسب الكروموسومات في دمها؛ وبالتالي يستحيل أن يكون قد حصل تزاوج، وأعقبه تناسل بين القرد، والإنسان.

وبناء عليه فإنه من الاستحالة بمكان أن يكون الإنسان أصله قرد. إن التزاوج، والتناسل بين بني البشر الآدميين جائز، وممكن لأن دمهم يحتوي على نفس النسْبة من الصبغات أي الكروموسومات وهي ٤٦؛ وذلك على اختلاف ألوانهم، وأشكالهم. فالرجل الأبيض يمكنه أن يتزاوج، وأن يتناسل مع المرأة السوداء، وكذلك الرجل الأصفر مع المرأة الحمراء... الخ.

لقد أخبرني زميل طفولة لي قابلته في ربيع سنة ١٩٨٤م اسمه خالد مصطفى صبري أنه تزوّج مرّتيْن، ولم يُنجب، وتبيّن أن سبب ذلك يعود إلى أن عدد كروموسومات دمه ٤٧. فكيف إذن يمكن، أن يحصل تزاوج، وتناسل بين القردة، وبني الإنسان حتى ولو تم ذلك على مدار ملايين السنين. كما يزعمون؟ فإن هذا يبقى مجرد افتراض وهمي، ولا دليل عليه، وبالتالي يستحيل أن ينجب القرد إنساناً، أو أن يكون الإنسان أصله قرد.

وهناك نقض رابع لنظرية داروين يتعلق بالفروق الخَلْقِيّة، والصفات

الوراثية، ومقاييس الذكاء، والدهاء، وشواهد التفكير، ومظاهر العلم، والفكر، والإرادة، وكذلك الفوارق الجسمية، والعضوية، والاختلاف في التركيب العضوي للأجهزة البدنية: الدموية، والتناسلية، والهضمية، والعصبية، والهيكلية؛ مما يجعل الفوارق كبيرة جداً بين القرود، وبني البشر.

إن قضية الفوارق بين القرد، والإنسان، جعلت بعض أنصار داروين مثل «كوالدس» يقول: «إنّ الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان، ولا بد من القول إنه خلق رأساً كإنسان»[١].

ومثل «فرخو» حيث يقول: «إنه يتبيّن لنا من الواقع أن بين الإنسان، والقرد فرقاً بعيداً؛ فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد، أو غيره من البهائم، ولا يحسن أن نتفوه بذلك»[٢].

وهناك نقض خامس لنظرية داروين يتعلق بكيفية خلق الخلايا، والذرات، والجينات الوراثية؛ وكيفية تركيب مكوناتها، وعناصرها، وتحديد عددها، وترتيبها؛ وكيفية إعادة ذلك حتى نكوّن مخلوقاً، أو حيواناً آخر من غير فصيلته. فضلاً عن كيفية إعطائها الحياة، والتي سرُّها عند خالقها. ولذلك يعتبر من السفسطة المادية، والهراء الأجوف قول «هيجل»: «أيتوني بالهواء، وبالماء، وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان»[٣]. إنّ احتياجه لمثل هذه المكونات يعتبر ردٌّ على نفسه، ونقضٌ لزعمه. ولقد رد عليه رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك «كريسي موريسون»، فقال بالحرف الواحد: «إنَّ «هيجل» يتجاهل في دعواه تلك الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسها؛ فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات، والخلايا التي لا سبيل إلى مشاهدتها؛ ثم عليه أن يخلق الجينات، أو حملة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هذه الذرات حتى يعطيها ثوب الحياة. ومع ذلك فإن إمكانية الخلق في هذه المحاولة بعد كل هذا لا يعدو واحداً على عدة بلايين من نسب النجاح. ولو افترضنا أن «هيجل» نجح في محاولته، فإنه لن يسميها صدفة بل سوف ينسبها إلى نفسه»[٤].

---

(١)(٢) سعيد حوّى ـ الله. ص ٥٠.

(٣)(٤) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ٧٠.

ب ـ **وبالنسبة للمنطق الروحي النصي**: ـ وعلماء المادة لا يعترفون به ـ فإن المنطق الروحي يقنعنا تماماً أن سنّة الله في كيفيات خلقه لا تقبل التبديل، ولا تقبل التحويل؛ ومنها تناسل الحيوان من سلالته، وعدم إمكانية تحوّله عن فصيلته، وعدم خروجه عن سلفه بالنسبة لصفاته الوراثية.

فقد قال تعالى: **﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً﴾** [الأحزاب: ٦٢].

وقال تعالى: **﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنّتِ اللّهِ تَبْديلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَحويلاً﴾** [فاطر: ٤٣].

وقال تعالى: **﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْويلاً﴾** [الإسراء: ٧٧].

فلم يحصل طيلة عهود التاريخ البشري، والحيواني أن تحوّل مخلوق عن صنفه. وإن النصوص، والتاريخ، والروايات، والقصص، والآثار تخبرنا كلها، وما زالت أن الأجيال البشرية هي من آدم، وآدم لم يكن قرداً باعتراف العلماء الماديين أنفسهم.

وكذلك تخبرنا النصوص القرآنية، والنبوية أن حقيقة خلق البشر آدميـة، والإنسان يبقى من نسل آدم، ويحمل صفاته الوراثية، ومهما تعددت الخلائق البشرية.

قال تعالى: **﴿يا أَيُّها النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً وَنِساءً﴾** [النساء: ١].

إن كثرة النسل، وتعدد الأفراد البشرية لا يخرجها عن آدميتها، ولم يَثْبُت أن خرج مولود بشري عن آدميته؛ وبقدرة الله، وسنته في خلقه أن يظل آخر بني آدم في صفاته الخلقية، والوراثية مشابهاً لأبيه الأول آدم. مصداق قوله تعالى: **﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾** [لقمان: ٢٨].

وخاطب البشرية بكملة: «يا أيها الناس» ليشملها بحكمه في أسرار إعجاز خلقه. قال الصاوي: «المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء، بل خلق العالم، وبعثه برمته كخلق نفس واحـدة، وبعثها»[1].

---

(١) الصاوي ـ الحاشية على تفسير الجلالين جـ ٣ ص ٢٥٩.

وقد أصّلت النصوص القرآنية أكثر من مرة حقيقة خلق الإنسان من جنسه فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

بمعنى أن خلق لكم من صنفكم، وجنسكم نساءً آدميات مثلكم، ولم يجعلهن، ونسلهن منكم من جنس آخر؛ فكان نسلكم من جنسكم، وجنس أزواجكم.

قال الحافظ المفسر ابن كثير: «ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنس آخر كالجان، أو الحيوان لما حصل هذا الائتلاف بينكم، وبين الأزواج، بل كانت تحصل النفرة؛ وذلك من تمام رحمته ببني آدم»(١).

وعندما نسب النصارى إلى نبيهم عيسى بن مريم صفة الألوهية، والربوبية، رد الله على زعمهم، وأعلمهم، وأعلم المؤمن، والكافر، والبشرية جمعاء بحقيقة صفة عيسى الآدمية، وأنه كأبيه آدم تماماً في أصل خَلْقه، وتكوينه، والإثنان من تراب، وطين، وصلصال كالفخار، وحمإٍ مسنون.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لَلْملائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

وقد أكّدت النصوص النبوية أيضاً حقيقة خلق الإنسان الآدمية الترابية، فقال الرسول ﷺ: «إنّ الله ـ عز وجل ـ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قدر الأرض. فجاء منهم: الأحمر، والأسود، وبين ذلك. والسهل، والحزن، والطيّب، والخبيث» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وقال ﷺ: «خلق الله آدم، وطوله ستون ذراعاً، ثم قال:

(١) محمد علي الصابوني ـ مختصر ابن كثير جـ ٣ ص ٥١.

اذهب، فسلّم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيّونك؛ تحيتك، وتحيّة ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك، ورحمة الله. فكل من يدخل الجنّة على صورة آدم؛ فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» رواه البخاري في باب خلق آدم جـ ٤ ص ١٣١. وفي حديث آخر قال ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم من تراب. ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» رواه أبو بكر البزار في مسنده.

وفي حديث آخر قال ﷺ: «الناس بنو آدم خلق من تراب» رواه الترمذي، وحسّنه البيهقي.

وفي حديث آخر قال ﷺ: «يا أيها الناس، إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد. ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي؛ ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى» رواه البيهقي.

وروى الترمذي عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾** قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها، فقال: «إنّ الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح على ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟! قال: فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبد للجنّة، استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله الله النار» رواه الترمذي في سننه جـ ٢ ص ٢٤٨ رقم الحديث: ٣٠٧٥. وأبو داوود في سننه جـ ٤ ص ٢٢٦. رقم الحديث ٤٧٠٣.

إن حقيقة خلق الإنسان من آدم، والتي تخبرنا عنها النصوص القرآنية، والنبويّة تبقى يقينية؛ فالله تعالى هو الخالق لبني آدم، وهو العالم بأسرار خلقه. فعندما يقول: **﴿يا أَيُّها الناسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ منْ ذَكرٍ وأُنْثَى﴾** [الحجرات: ١٣]. تبقى هذه الحقيقة الخَلْقية للبشر، وبأنهم من آدم، وحواء يقينية وإلى قيام الساعة. وكل أولاد آدم، وحواء يرثون صفاتهم الوراثية، ويبقون آدميين، وليس من فصائل حيوانية أخرى كالقرود مثلاً.

إن علماء حضارة رأس المال، والإلحاد لا يستطيعون، ومهما حاولوا أن يغيّروا من كنه هذه الحقيقة الخلقية لبني آدم. وبحيث يبقى الإنسان آدميًا، ومن نسل آدم، مخلوق، وليس خالقاً؛ وعابداً لله، وليس معبوداً؛ وما خلق بنو آدم إلاّ لأمر واحد فقط هو عبادة الله مصداق قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولنفسح المجال لعالم الطبيعة الأمريكي «جورج إيريل ديفيس» يفند مزاعم علماء حضارة المادة، فتراه يقول بالحرف الواحد: «لو كان يمكن أن يكون للإنسان، أو الكون أن يخلق نفسه، فمعنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق. وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الله، وبأن الإنسان هو الله، وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود الله. ولكن إلٰهنا هذا سوف يكون عجيباً؛ إلٰهاً مادياً، وغيبياً في آن واحد. إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإلٰه الذي خلق العالم المادي - وهو ليس بجزء من هذا الكون - بل هو حاكمه، ومدبره، ومديره بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات»[١].

إن علماء حضارات المادة الرأسمالية، والشيوعية يؤمنون في قرارات أنفسهم أن الإنسان مخلوق غير خالق، وعابد غير معبود. إنهم يؤمنون بحقيقة خالقهم، وهو الله، وحقيقة خلقهم، وهم المخلوقون بالفطرة. فلماذا يؤمنون فقط بالمخلوق، ولا يؤمنون بالخالق.

فليس من الحكمة أن يؤمنوا بالمخلوق، وأن لا يؤمنوا بإلٰه هذا المخلوق!! وليس من المنطق أن نتساءل عن الذي خلق الخالق؟! لأنه في هذه الحالة لا يكون خالقاً. ولذلك إنّ من لغَطِ القول، أن يذكر «جون ستيوارت ميل» في سيرة حياته: أن أباه علّمه أن سؤال: من الذي خلقني؟! لا يكفي لإثبات وجود الله؛ إذ ينجم عنه تلقائياً سؤال: فمن الذي خلق الإلٰه؟!»[٢]. وقد اعتبر العالم الرياضي «براترند رسل» أن الاعتراض الثاني كافٍ لرفض مدلول السؤال الأول. وهذا استدلال سفسطي قديم لدى الملحدين لم، ولن يوصلهم إلى شيء عقلاني عن حقيقة وجود الإنسان كمخلوق، وحقيقة وجود الإلٰه كخالق.

---

(١) وحيد الدين خان - الإسلام يتحدى. ص ٧١.

(٢) وحيد الدين خان - الإسلام يتحدى. ص ٤٩.

إن سفسطة ملحدي الحضارات المادية لم تسعفهم في إنكارهم للإلٰه؛ حيث يعترفون بحقيقته، ولكن بصورة غير مباشرة؛ ومن طريق الاعتراف بدينه، وشرائعه؛ وخاصة فيما يتعلق بتكريس الأخلاق. لقد أنكر الفيلسوف الألماني «كنت» فكرة الإلٰه قائلاً: «إنه لا توجد أدلة كافية، شافية على وجوده»[1]. وفي نفس الوقت يعترف بدينه، ويقرّ بشرائع هذا الإلٰه من حيث تكريس الأخلاق في مجتمعه.

إن «ڤولتير» ـ شاعر الثورة الفرنسية ـ لا يؤمن بالإلٰه، وما وراء حدود الطبيعة، ولكنه يرى: أن أهمية الإيمان بالله كفيلة بإيجاد إطار أخلاقي أفضل للمجتمع. وعلى حد زعمه: فلو أن هذه العقيدة الإيمانية زالت؛ فإنه سيترتب على ذلك انهيار النظام الإجتماعي بِرُمَّتِه[2].

إنّ «ڤولتير» هذا، والذي افتتن بأشعاره، وأدبياته بعض مثقفينا في عالمنا العربي الإسلامي مردود عليه إيمانه بالأخلاق، ومردودة عليه أخلاقياته الإيمانية بدين الله، وشرائعه، فهو لا يُؤمن إلا بالدين الذي يرتأيه، والأخلاق التي يختارها، والإيمان الذي يحقق له، ولأمثاله مآربهم الدنيوية. ولو كان يؤمن بدين الله كما يدعي، فلماذا لا يؤمن بدين الله الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ»؟! ولماذا يؤمن بالمسيح ربًا، ولا يؤمن بمحمد نبياً، ورسولاً؟! ولماذا أوصلته وقاحته إلى شتم محمد ﷺ واتهامه بالكذب على إلٰهه؟!!.

لقد كتب «ڤولتير» «مسرحية محمد»، وأهداها إلى البابا «بنوا»، وقدّم لها بهذه العبارات البذيئة عن خبر سيّد ولد آدم: «فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة. إذ تجرأ، فقدم إلى رئيس الديانة ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة، بربرية، وإلى مَن غيّر وكيل رب السلام؛ والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نَبيّ كاذب، وأغلاطه. فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميْك الكتاب، ومؤلفه؛ وأن أجرؤ على سؤالك الحماية، والبركة. وإني مع الإجلال العميق أجثو، وأقبّل قدميْك القُدسِيَّتين. ڤولتير في ١٧ أغسطس سنة ١٧٧١م»[3].

إنّ ما أوصلهم الله إليه من إنجازات مادية، ومكتشفات علمية، ومخترعات

---

(١)(٢) وحيد الدين خان ـ نفس المرجع. ص ٨٩.

(٣) سعيد أيوب ـ شيطان الغرب سلمان رشدي. ص ٧٩.

فكرية بالنسبة لشتى مجالات الحياة كل هذا يدعوهم قبل غيرهم، ويُوجب عليهم أن يصححوا، وأن يضعوا علاقاتهم بربهم، وأن يضعوا علاقات الإنسان بربه في موضعها الصحيح. فيبقى الرّب هو الخالق، المسيّر، المدبر، الرازق، الموحي، والملهم؛ ويبقى الإنسان هو المخلوق الضعيف، المحتاج، المقصر، الباحث عن الحقيقة الحياتية، الموحى إليه، والفقير إلى الله في كل شيء؛ وبعقله المحدود، يستمد العون من الإلٰه خالقه لحل مشكلاته الحياتية اللامحدودة. ولكن وللأسف الشديد فإن المعادلة التي رسموها في علاقاتهم بالإلٰه خالقهم، قد شوّهت أسسها؛ وبدلاً من جعل الإلٰه هو الأساس جعلوا الإنسان هو سيد الموقف بالنسبة لجميع القضايا الحياتية الدينية منها، والدنيوية.

إن سيادة الإنسان للأرض من دون الله جعل الحياة مسرحاً للشطأنة، والقرصنة، تلعب أدوار فصولها شخصيات آدمية منكرة، تحارب الله، وتتودّد إلى الشيطان. فملأوا الأرض جوراً، وظلماً، وأثاروا الرعب، وأشاعوا الفتن، ونشروا الرذائل، وأعلنوا الحروب الكونية بين الأمم. وهم يتناسون أن الرفاهية البشرية، والسعادة الحقيقية لا تتحقق إلاّ بالالتجاء إلى القوة الإلهية القادرة، والإلتزام بأوامره، واجتناب نواهيه؛ ومن خلال مظاهر الروحانية، والمادية معاً؛ وهذا هو سر انضباط المجتمعات الإسلامية المؤمنة قديماً، وحديثاً.

لقد حاولت حضارات الكفر المادية أن تلطف من حدة إساءتها للإلٰه خالقها في علاقته بمخلوقه الإنسان وذلك بإشراكه بالإلٰه، وإضفاء صفة الألوهية عليه فحكمت طواغيت الشرك باسمه، وفيما يعرف بالحق الإلهي، والذي حكم به ملوك أوروبا شعوبهم طيلة قرون طويلة، وكذلك غيرهم قديماً.

قدّمت حضارة الكفر الفرعونيّة للبشرية فرعون سيداً للموقف الحياتي، وحاكماً باسم الرب الأعلى؛ فقال تعالى على لسانه: **﴿فَحَشَرَ فَنادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾** [النازعات: ٢٣ ـ ٢٤].

فسام قومه سوء العذاب، وذبّح أبناءهم، واستحيا نساءهم، ولم يُنج موسى، وقومَه من ظلم فرعون إلا الإلٰه خالقُهم، فقال تعالى يمنّ عليهم برحمته: **﴿وَإِذْ قالَ موسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وفي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾** [إبراهيم: ٦].

وقدّمت حضارة الشرك الفارسية للبشرية كسرى سيّداً للموقف الحياتي، فحكمها باسم الحق المقدس، وحلل لنفسه جميع المنكرات مع قومه، وحتى مع نفسه، وأبنائه، وبالسماح لنفسه بالزواج من بناته. وكانت حروبه الضروس مع قياصرة الروم فقط لتثبيت حكمه، وجبروته.

وقدّمت حضارة الكفر الرأسمالية للبشرية باباوات روماً أَسياداً للموقف الحياتي الديني، وملوك أوروبا أسياداً للموقف الحياتي الدنيوي. وحكم جميع هؤلاء شعوب الأرض باسم الحق الإلهي المقدس؛ فقتلوا، وظلموا، واستبدّوا. وكما يقول الأستاذ «إمري ريفر» في كتابه: «تحليل السلام»: «إنّ القتل الواسع النطاق، والتعذيب، والاضطهاد لأدلة قاطعة على إفلاس المسيحية؛ وكوسيلة لتحويل الإنسان من حيوان إلى مخلوق اجتماعي معقول. لقد قتل ملايين الأبرياء دون أن تهتز شعرة في جسم من قتلوهم. كما نهب عشرات الملايين من البشر، كما نفوا عن بلادهم، واستعبدوهم؛ ولقوا هذا المصير على أيدي مسيحيين انحدروا من أصلاب مسيحية انتسبت منذ قرون إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، أو إلى الكنيسة الشرقية البروتستانتية»[١].

وقال أيضاً: «إنّ مجرد حصول هذه النكسات قاطع الدلالة على عدم كفاية الوسائل المسيحية في تكييف الأخلاق السلمية، والإنسانية، وحمْل الإنسان على ترك ما توحي به غرائزه، والاهتداء بالمثل الروحية. لقد عجزت المسيحية عن التسرب إلى نفس الإنسان»[٢].

لقد استبدت الكنيسة بالحكم، وتحالفت مع الملوك في حكمهم؛ ومستندهم التفويض الإلهي بالحكم المطلق للملوك. لقد أفرز التحالف الاستبدادي الكهنوتي مع الحكم الإلٰهي المطلق لملوك أوروبا مظاهر الشطأنة في القتل، والفساد، وإصدار مراسيم الحرمان، ومحاربة العلم، والحجر على العقل، وإصدار صكوك الغفران، وبيع الجنة للأغنياء، وتخصيص النار للفقراء؛ فأماتوا الحضارة، وبطشوا بالمدنيّة، وأحلوا كل محرم، وارتكبوا كل منكر، وفي نفس الوقت يدّعون أنهم متحضرون.

لقد نصّبت حضارة كفر الرأسمالية النصرانية بابا روما سيداً للموقف الحياتي

---

(١)(٢) دكتور غازي عناية ـ فصل الدين عن الدولة.

الديني من دون الله، فهو يترجم هذه السيادة إلى الواقع العملي حيث يمنح صلواته، وتبريكاته لأتباعه الذين يحتشدون في ساحة القديس بطرس بروما، صباح كل أحد، وَهُوَ لا يؤمن بالله الأحد. وكما يقول تعالى فيهم: ﴿**اتخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالمسيح ابْنَ مَرْيَمَ**﴾ [التوبة: ٣١]. مع أن السيادة في الحقيقة لله تعالى، والعبادة لله وحده، وكما يخبرهم ربهم بقوله: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا أَلٰهاً وَاحِداً لا إِلٰهَ إلاّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

لقد أطاعوا أسيادهم البابوات، والأحبار، والرهبان، فحرموا عليهم ما أحل الله لهم، وَأَحلّوا ما حرّم الله عليهم. وفي التفسير المأثور عن الرسول ﷺ: أن عديّ بن حاتم الطائي قال: أتيت رسول الله ﷺ، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن. قال: وسمعته يقرأ سورة براءه: ﴿**اتّخذُوا أَحبَارهمْ وَرُهبانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ فقلت: يا رسول الله، لم يكونوا يعبدونهم! فقال «عليه السلام»: أليس يحرّمون ما أحلّ الله، فيحرمونه، ويحلّون ما حرّم الله، فيستحلونه؟!! فقلت: بلى. قال: فذلك عبادتهم»[1]. ولذلك حذّرنا الله مِنهم، وأخبرَنا عن مخازيهم المادية، وأكلهم أموال الناس بالباطل فقال خير من قائل: ﴿**يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبارِ وَالرُّهبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النّاسِ بِالبَاطِلِ**﴾ [التوبة: ٣٤].

والأحبار هم علماء اليهود، والرهبان علماء النصارى. يقول الراهب «جيروم»: «لقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً، واستحوذ عليهم الجشع، وحب المال حتى أنهم كانوا يبيعون المناصب، والوظائف كالسلع، وقد تباع بالمزاد العلني. ويؤجّرون أرض الجنّة بالوثائق، والصكوك، وتذاكر الغفران، ويمنحون شهادات النجاة، وإجازات حل المحرمات، والمحظورات، ويرتشون، ويرابون. وقد بذروا الأموال حتى أن البابا «إينوسنت الثامن» رهن تاج البابوية. وحتى أن البابا «ليو العاشر» أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة، وأموال، وإن دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي لنفقات البابوات، وإرضاء شهواتهم»[2].

---

(١) الألوسي ـ تفسير روح المعاني ـ جـ ١٠ ص ٨٤. ورواه الترمذي في سننه.

(٢) أبو الحسن الندوي ـ ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين.

لقد تقاسم أحبار اليهود، ورهبان النصارى نعيم الدنْيا، والآخرة، ومنحوا هذا النعيم لمن يدفع أكثر من الماركات والفرنكات؛ وفي عُرْفهم أن الغني في الدنيا هو غني في الآخرة؛ وأن الفقير في الدنْيا هو فقير في الآخرة؛ لأنه لا يستطيع أن يشتري له، ولأهله أرضاً في الجنة؛ فهو لا يملك المال، وهو بذلك يستحق الحرمان، والدخول إلى النار.

لقد باع بابواتُ روما الجنّة للأغنياء من الناس، ومنحوهم صكوكاً بالتملك لأرض الجنة، فكانت تدفن هذه الصكوكْ معهم في القبور حتى يظهروها يوم الحشر للملائكة، فلا يعترضون طريقهم إلى الجنة. وفطن الحاخام الأكبر اليهودي للطريقة التي ابتزّ بها بابا روما الناس، وأكل بها أموالهم؛ فمكر الحاخام، وعرض على البابا أن يشتري منه جهنّم؛ فتعجب البابا، ونصحه أن يشتري أرضاً له في الجنة بدلاً من النار، ولكن الحاخام اليهودي رفض، وأَصرّ على رأيه، ومن ثم باعه بابا روما النار، ومنحه صكًا بملكيتها. وبعد ذلك أعلن الحاخام اليهودي على الملأ في أوروبا قائلاً: إن النار أصبحت ملكي، ومن أراد أن أحرمه من جهنم، فليعطني قليلاً من المال، ومن ثم يدخل الجنة. فتحول الناس إليه، وخاصة الفقراء، والمحرومين، وجمع أموالاً أكثر منهم؛ وبعد أن فطن البابا لمكر الحاخام اشترى منه جهنم ثانية، واسترجعها منه لينفرد البابا لوحده في أكل أموال الناس بالباطل.

واستناداً إلى كونه سيّداً للموقف الحياتي الديني منح البابا لنفسه صلاحية إعطاء صكوك الغفران للناس نيابة عن الله خالقهم بعد أن استبعدوه. وإن نص صك الغفران، وبالحرف الواحد: «ربّنا يسوع يرحمك يا فلان، ويحلّك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة. وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلّك من جميع القصاصات، والأحكام، والطائلات الكنسيّة التي استوجبتها؛ وأيضاً من جميع الإفراط، والخطايا، والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة، وفظيعة؛ ومن كل علّة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي. وأمحو جميع أقذار الذنب، وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة. وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر، وأردك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة، وأقرنك في شركة القديسين. أردك ثانية إلى الطهارة، والبر اللذيْن كانا لك عند معموديتك حتى إنه

في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخُطاة إلى محل العذاب، والعقاب؛ ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوْس الفرح. وإن لم تمت سنين مسْتطيلة، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الأب، والابن، والروح القدس»[1].

إنه لعجب أمر الكهنوتية النصرانيّة أن تدخل ميادين المنافسة على ترف الدنيا، وقماماتها مع ملوك الظلم، والجبروت، فكانوا أي رجال الدين المسيحي أظلم منهم.

لقد قتل رئيس الولايات المتحدة الأمريكي جون كيندي سنة ١٩٦٠م وكان كاثوليكياً، فأحضروا له الكاردينال الكاثوليكي الأكبر ليؤبنه أمام جمع من كبار موظفي البيت الأبيض كبير، وأحضر زيْتاً سمّاه الزيت المقدس، وغمس إصبعه فيه ثم مسح به جبين جون كيندي، وقال له: لقد غفرت لك. وعلى مسمع، ومرأى من الجميع، وآلات التصوير السمعية، والبصرية تصوّر، وتسجل غفرانه للرئيس. ولعجبي، وأنا أتساءل: إن كنت قد غفرت لكيندي حتى يدخل الجنة فمن سيغفر لك لتضمن دخول الجنة عندما، وبعد أن تموت؟!!.

لقد رحل القسيس الأمريكي «الأب جونز» بأتباعه الألفيْن إلى «غويانا»، بعد مطاردة المخابرات المركزية له؛ وفي إحـدى معسكراته في غابات «غويانا» أجبر أتباعه نساءً، ورجالاً، وأطفالاً على شرب مادة الأسيد السّامة، فماتوا جميعاً، ومات معهم؛ وكل ذلك لأنه سيد الموقف الحياتي. وقصته معروفة للناس كافة، وقد حصلت في السبعينيات من هذا القرن.

إن حضارة الكثلكة قدّمت الإمبراطور الروماني «كاراكلا» للبشرية سيداً للموقف الحياتي الدنيوي، فأستخف قومه، فأطاعوه؛ وأجبرهم على أن يسجدوا لحصانه الذي علّمه، ودرّبه على حركات راقصة عندما يأمره؛ وإليه تنسب حركات الرقص البهلوانية، والشائعة اليوم باسم «كاراكلا».

لقد قدمت حضارة رأس المال المادية ملوك الظلم، والجبروت أسياداً للمواقف الحياتية الدنيوية، فارتْكبوا أبشع الجرائم بحق الشعوب. وعندما قدّمت

---

(١) محمد أبو زهرة ـ محاضرات في النصرانيّة. ص ٢٤٣.

لويس الخامس عشر ملكاً على فرنسا قال بعد أن استعبد شعبه قولته الشهيرة: «وليكنْ بَعْدِيَ الطوفان».

وعندما قدّمت «نابليون بونابرت» قائداً للثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م قال قولته المشهورة عن التاريخ: «إنّ التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تغْني شيئاً»، وكان يتقوى في حروبه بمضاجعة زوجة أحد رفقائه الضباط في الجيش الفرنسي.

وفي هذا القرن المتمدن كما يقولون قدّمت الحضارة المادية الرأسمالية كالعادة نماذج من أسوأ، وأظلم الحكام وأشدهم على الرحمن عتيًّا. ويقع على رأس هؤلاء رؤساء الدول الأوروبية، والأمريكية. قدّمت الحضارة الرأسمالية الأمريكية رؤساءها أسياداً للموقف الحياتي الدنيوي. فشنوا حروبهم الوحشية على شعوب العالم. وقد عُرف كل رئيس بحربه التي شنها، وأعلنها على الآخرين، ومن هؤلاء: الرئيس «ترومان» الذي ألقى القنابل النووية على مدينتيْ هيروشيما، وناغازاكي سنة ١٩٤٥ م. والرئيس «جونسون» الذي افتعل حادثة ما يسمى «تونكين» خليج البحر الفيتنامي ليشن حرب إبادة على الشعب الڤيتنامي الفقير.

والرئيس نيكسون ووزير خارجيته هنري كسينجر ـ اليهودي، وأشد أعداء المسلمين ـ والرئيس جيمي كارتر الذي خطط لاتفاقية صلح كامب ديڤيد، بين مصر، وإسرائيل، والتي بموجبها اعترفت مصر بإسرائيل، واحتلالها لفلسطين.

والرئيس ريغان الذي أعلن عداوته للإسلام، والمسلمين صراحه، وقال بعد فوزه في انتخابات الرئاسة الأمريكية: إنني لا أثق في هؤلاء المسلمين الذين يعتقدون أن الجهاد هو السبيل لدخول الجنة.

والرئيس «جورج بوش» الذي خاض حرب الخليج، وقتل الشعب العراقي، وأحرقه بقنابل الطائرات، والصواريخ. وكل هؤلاء الرؤساء دعموا إسرائيل، وما زالوا في قتلها للفلسطينيين المسلمين، واحتلال فلسطين.

وقدمت الحضارة الرأسمالية الفرنسية الرؤساء: «جي موليه» الذي زود إسرائيل بأول مفاعل نووي؛ والرئيس ديغول الذي قتل الشعوب المستعمرة المستضعفة: ومنها الشعب الجزائري المسلم.

وقدّمت الحضارة الرأسمالية البريطانية «بلفور» والذي وهب فلسطين لليهود بوعده المشهور؛ والملكة اليزابيث التي وقعت على كل القوانين البريطانية التي

استعبدت بها شعوب العالم. وقدمت الحضارة المادية الشيوعية رؤساءها أسياداً للموقف الحياتي الدنيوي؛ وعلى رأسهم: الرئيس ستالين الذي اقشعرت لجرائمه حتى أجساد الكفار.

والرئيس بولغانين، وخروتشوف اللذين أبادا الشعب المجري سنة ١٩٥٦ م.

والرئيس بريجنيف الذي احتل بجيوشه تشيكسلوڤاكية سنة ١٩٦٨ م، وأفغانستان سنة ١٩٧٩ م. لا مرية أننا نرى غياب أضواء الحق الإنساني في غياب أنوار الحق الإلهي الذي استبعدته حضارات الكفر المادية، واستبدلته بظلمات العقل الإنساني. هذا العقل الذي كرمه ربه به، وميّز به الإنسان عن الحيوان، وآزره بفطرة الخير، والصلاح، والعدل. ولكن ها هي جريمة الحضارات المادية، والتي تغاضت عن كل هذه المكرمات الربانية، وتنكرت لربها، وأقامت لنفسها مسرحاً حياتياً تلعب فيه برجالها، ورؤسائها كل أدوار الشر، والمنكر، والظلم، والتي أودت بالعالم الآن إلى أسوأ الكوارث الأليمة على الإطلاق.

إننا ونحن نرقب أحوال شعوب، وأمم الأرض، وما أصابها من مصائب؛ نقول: إن سبب كل هذا عبادة حضارات الكفر المادية للإنسان، وتأليهه، وتنزيهه، ومن ثم تقديس عقله وقوانينه، وشريعته، والمعبود إنما يعبد بشرائعه. وصدق فيهم قول ربهم: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ على قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وعَلى أَبْصَارِهِمْ غشَاوَةٌ ولهُمْ عذابٌ عظِيمٌ**﴾ [البقرة: ٧].

إن حضارات الكفر المادية الرأسمالية، والشيوعية أساءت التعامل مع الله في تأليهها للإنسان؛ فتبقى حضارات مادية متخلفة، ويبقى أصحابها اليهود، والنصارى، والبوذيون، والوثنيون غير متحضرين، ولو كانوا أصحاب مدنيّة متقدّمة.



إساءة الحضَارة الرأسمالية والشيوعية إلى الله
من خلال نظرتهما إلى الكون

وذلك من خلال تفسيراتها المادية، وغير العلميـة لحقيقة وجود الكوْن؛ فنسبته مرة إلى الأزلية، ومرة إخرى إلى الصدفة؛ وكل ذلك ليثبتوا حقيقة عدم وجود الإله خالقهم، وخالق هذا الكوْن.

١ ـ **فبالنسبة لأزلية الكوْن**: استندوا في إثبات ذلك إلى افتراضات، ونظريات وهميـة، ارتجالية، وخيالية لا سند علمي لها ولا دليل. ومع أن عدم أزلية الكون، وعدم أبديته، وأن له بداية، وأنه مخلوق تثبته الأدلّة الفطرية، والعقلية، والعلميـة، ومن الأخيرة ما اكتشفه الماديون، بأنفسهم، وفي شكل قوانين، ونظريات سلّموا بحقيقتها؛ وبدلاً من أن يؤكدوا بها حقيقة بداية الكون، ويعترفوا بمكوناته المادية أنه مخلوق، وأن القوة الأعظم الإلهية هي الخالقة له فقد عقّدوا المسألة، واعتبروا معلوماتهم التي توصلوا بها عن الكوْن غير مقنعة للاعتراف بأن الكون مخلوق، وليس أزلياً، وأن الله هو خالقه. يقول الأستاذ «ج. و. ن. سوليفان»: «إنّ الكوْن الذي كشفه العلم الحـديث هو أكثر غموضاً، وإبهاماً من التاريخ الفكري بأكمله. ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أي عصر مضى؛ ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة؛ فنحن نواجه اليوم الإبهام، والمتناقضات في كل ناحية»[١].

إن القدرة الإلٰهية التي مكنتهم من اكتشاف أسرار الكون لم يعيروها أدنى اهتمام؛ وأخضعوا ما اكتشفوه من حقائق الطبيعة، والكون إلى تفسيراتهم المادية، والعلميـة. ومع ذلك، ولو كانوا موضوعيين في الحكم على الأمور لأقنعتهم

---

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ٩٩.

تفسيراتهم العلميـة، ولقادتهم قوانينهم العلميـة إلى الاعتراف بعدم أزلية الكون، ومن هذه القوانين ما ينقض نظرياتهم، ويمكننا بها من إثباتِ عدم أبدية الكون، وأن له بداية، وله نهاية، ومن هذه القوانين: ما يتعلق بالحرارة، والحركة الإلكترونية، والطاقة الشمسية، والفلك، والكيمياء، وغيرها.

أ ـ **بالنسبة لقوانين الحرارة**: يقول «إدوار لوزكيل» مثبتاً إن لهذا الكون بداية استناداً إلى قانون الحرارة: «وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكوْن هو خالق نفسه؛ وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إلٰه أزلي. ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية تثبت خطأ هذا الرأي. فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكوْن لا يمكن أن يكون أزلياً. فهناك انتقال حراري مستمد من الأجسام الحارة إلى الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية. ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة الأجسام، وينضب منها معين الطاقة؛ ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية، أو طبيعية، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون. ومن هنا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، وإلاّ لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كل نشاط في الوجود. وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية؛ وهي بذلك تثبت وجود الله. وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه، ولا بد له من مُبدىء، من محرّك أول، من خالق هو الإلٰه»(١).

وبنفس القانون يستدل «العالم فرانك ألان» العالم البيولوجي على عدم أزلية الكوْن، فيقول: «كثيراً ما يقال: إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق؛ ولكننا لو سلّمنا بأن هذا الكون موجود، فكيف يكون وجوده، وكيف تكون نشأته؟! إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكوّنات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائدة حتماً إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق؛ ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة؛ ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت. أمّا الشمس المستعرة، والنجوم

---

(١) سعيد حوّى ـ الله. ص ٢٢.

المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل الكوْن يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة؛ فهو إذاً حـدث من الأحـداث. ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكوْن من خالق أزلي؛ ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حـدود؛ ولا بد أن يكون هذا الكوْن من صنع يديْه»[1].

وبنفس قانون الحرارة يستدل «السير جيمس» على بداية الكون، وعدم أزليته بقوله: «تؤمن العلوم الحـديثة بأن عملية تغيّر الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية، ولـم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها؛ لأنه لو حـدث شيء مثل هذا، لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض. وإن هذه العملية تتقدم مع الزمن بسرعة، ومن ثم لا بد لها من بداية؛ ولا بد أنه قد حـدثت عملية في هذا الكوْن يمكن أن نسميها خَلْقاً في وقت ما حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً»[2].

فالقانون الحراري يثبت أن الحرارة تنتقل من وسط حراري إلى وسط غير حراري؛ وستفقد الطاقة الحرارية وستبلغ الصفر في وقت ما من الزمن. فلو كان الكوْن أزلياً ولا بداية لهُ، فإنّ من المفروض أن تكون هذه الطاقة الحرارية قد انتهت الآن، وفقدت مع مرور الزمن. ومع أن هذه الطاقة ما زالت إلى الآن فإن هذا يعني أن لها بداية، وأن للكون بداية، وأنها بدأت، وخلقت مع الكون في وقت ما؛ ولذلك وجب القول: بأن الكون له بداية، وليس أزلياً، وكذلك فإنه سيأتي وقت تفقد فيه الطاقة الحرارية، ومن ثم تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، فتنتهي العمليات الكيماوية، والطبيعية، ومن ثم تنتهي الحياة؛ وينتهي الكون؛ فهو بالتالي ليس أزلياً سواء بالنسة لوجوده، أو لانتهائه.

ب ـ بالنسبة لقوانين الحركة الإلكترونية: والتي يستدل بها على حـدوث الكون، وأن له بداية. وليس أزلياً. وتفسير ذلك أن الذرة، وهي أصغر جزيء يتكون منها الكون تتألف من ثلاثة جزيئات معتدلة، وهي: النيترون وهي موجبة، والبروتون وهي سالبة، والالكترون. وثبت علمياً أن الالكترون هو في حركة إهليلجية دائرية حول النواة، وبسرعة هائلة، ودائمة، ولولا هذه السرعة في

---

(١) سعيد حوّى ـ الله. ص ٢٤.

(٢) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدّى. ص ٥٠.

الحركة لجذبت النواة الإلكترون، ولأصبحت الكرة الأرضية في حجم بيضة الدجاجة. وبما أن الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانيّة، ومكانية بدأ منها دورته؛ وبما أن الإلكترونات في جميع الذرات التي يتكون منها الكون، وتتكون منها الأجرام، والشموس، والكواكب في حركة سريعة ودائمة؛ فمعنى ذلك أن هذه الإلكترونات، وهذا الكوْن، وهذه الأجرام المتحركة لها بداية زمانية، ومكانية. وإن الذرات التي يتكون منها الكون لها بداية زمانيّة، ومكانية. وهذا يعني أن للكون بداية ونشأة، وخلقاً في وقت ما، ومكان ما، ولا يعلم تحديدهما إلاّ خالقهما. وكون الكون له بداية يعني أنه مخلوق، وكونه مخلوقاً يعني أن له خالقاً هو الله تعالى خالق الذرات، والإلكترونات، والبروتونات التي يتكون منها هذا الكون غير الأزلي.

ج ـ **بالنسبة لقوانين الطاقة الشمسية**: فإنّ ذرات الشمس، وغيرها من الشموس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جداً، وبواسطة تحطم الذرات هذه تنتج الطاقة الحرارية التي تزود الأرض بجزء منها. ومن المعلوم أنه عندما تتحطم الذّرات في الشمس، فإنها تفقد جزءاً من كتلتها حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة؛ وبالتالي فإن الشمس نفسها تفقد جزءاً من كتلتها أيضاً؛ لأنها تتكون من هذه الذرات. فلو كانت الشمس أزلية، ولا بداية لها، فالمفروض أن تكون قد استنفدت، وانتهى أمرها.

ومن المعلوم أن أشعة الشمس عندما تصطدم بالأرض، تأخذ الأرض جزءاً من حرارتها، ومن ثم تصبح الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية، ولكن بعض أشعة الشمس لا تصطدم بالأرض، وقد لا تصادف مادة تمتص حرارتها، وتحولها إلى طاقة حرارية؛ وبالتالي لا تتحول هذه الأشعة إلى مادة، ويكون مصيرها الفناء، ولو كان الكون بشموسه أزلياً، لاستُنفد الكون بشموسه، وإذن لا بد له من بداية ابتدأ منها، وبها. وما دام للكون بداية، فهو مخلوق خلقه الله من عدم. وقد تكلّم علماء التوحيد القدامى عن قضية حدوث الكون، وابتدائه من عدم بقدرة الله: فقد وجدوا الكوْن على نوعيْن: نوع يقوم بذاته، ونوع لا يقوم بذاته. وسموا ما يقوم بذاته، الجوهر: كالجسم، والذرة. وسموا ما لا يقوم بذاته: العَرَض، كالمرض، والحرارة. فالجسم جوهر يقوم بذاته، والمرض عَرَضٌ لا يكون بدون جسم.

والذرة جوهر يقوم بذاته، والحرارة عَرَضٌ لا تكون بدون الذرة.

وقال العلماء: إن الجواهر لا تنفك عن الأعراض. وكل جوهر إلاّ ويلازمه عَرَضٌ. وكل عرض حادث؛ فالظلام حادث لأنه كان قبله نهار. والنهار حادث لأنه كان قبله ظلام. وحرارة الذرات حادث، وبما أن كل عرض له بداية، فإن كل حادث له بداية؛ فإن الظلام له بداية، والنهار له بداية، وحرارة الذرات لها بداية، وحرارة الكون لها بداية. وبما أَن كل جوهر له عرض وكل الأعراض لها بداية، فالجواهر كلها لها بداية، وليست أزلية؛ فالكون جواهره، وأعراضه لها بداية. فالكون إذن ليس أزلياً، ومرّ عليه وقت كان فيه لا شيء، ثم أصبح له بداية ومنذ وقت أن خلقه الله من القدَم.

د ـ **بالنسبة لقوانين الطاقة الكيميائية**: يقول العالم «جون كوشران»: «وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال، أو الفناء. ولكن بعضها يسير في طريق الزوال بسرعة مذهلة، وبعضها الآخر بسرعة ضئيلة. وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، وليست أزلية، إذْ أن لها بداية. وتدل الشواهد الكيميائية، والعلمية الأخرى أن بداية المادة لم تكن بطيئة، أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد»[1].

فقد ثبت كيميائياً أن المادة، والذرات، والخلايا التي تتكون منها المادة الكونية في حركة دائمة، ومستمرة، وتفقد جزءاً من كتلتها في كل لحظة؛ وهي بالتالي ستفنى مع مرور الزمن. فالكوْن إذن ليس أزلياً، وسيفنى في نهاية الأمر.

وقد ثبت كيميائياً أيضاً أن هذه المادة، والذرات، والخلايا لم تنشأ ببطيء، أو تدريجياً، وإنما فجأة، فهذا يعني أن لها بداية، وبدأت، وتخلقت في وقت ما؛ فهي بالتالي، والكون الذي يتكون منها كان لها، وله بداية لم تكن موجودة قبلها.

هـ ـ **بالنسبة لقوانين الفلك**: يقول العالم «ايرفنج وليام»: «يشير علم الفلك أن لهذا الكوْن بداية قديمة؛ وأنه يسير إلى نهاية محتومة. وليس بكلام علمي أن نقول، أو نعتقد بأن هذا الكون أزلياً، وليس له بداية، أو أبدياً، وليس له نهاية؛ فهو قائم على أساس التغيّر»[2].

---

(١) جون كليفر ـ الله يتجلّى في عصر العلم. ص ٢٧. وسعيد حوّى ـ الله. ص ٣٠.

(٢) جون كليفر ـ نفس المصدر. ص ٥٥. وسعيد حوّى ـ الله. ص ٣٠.

قد يقول بعض علماء حضارة المادة: إننا لا نخاف الله؛ وينأوْن بأنفسهم عن خشية الفطرة الإيمانية المؤصلة في قوله تعالى: **﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَمَاءُ﴾** [فاطر: ٢٨].

ولكنّ الذي يحيّر العقول: أن إنجازاتهم العلميـة حوْلَ الكون تعتبر طرقاً مثلى، ونماذج دلالية فضلى، وأسباباً مقنعة لمعرفة الحقيقة الإلهية، وأن الكون مخلوق، والله خالق له. ولكن عزاءهم الوحيد في نكرانهم لله الخالق للكون يكمن دوْماً في تساؤلهم: إذا كان للكون خالق، فمن الذي خلق هذا الخالق؟!! يقول علماء التوحيد الإسلامي إنه لا معنى لمثل هذا السؤال. لأنه لو قلنا: إن هناك خالقاً له، ولهذا الخالق خالق، وهلم جرا، فإننا لا بد أن نصل في النهاية إلى ذات لا بداية لها، ولا خالق. هذه الذات التي لا بداية لها، ولا خالق هي الذات الإلهية. وكل جواب في الوسط لا معنى له في النهاية. فهناك خالق لم يخلقه أحـد، وهناك مخلوق خلقه الخالق، ولا يمكن أن يكون للخالق خالق؛ لأنه في هذه الحالة لا يكون خالقاً. فيبقى الله هو الخالق، ولا بداية له، ويبقى الكوْن مخلوقاً، وله بداية.

وتقرر شواهد علم الفلك أن الكوْن لم يكن موجوداً منذ الأزل، وأن له بداية خلق عندها، ونهاية سينتهي عندها، وأن له عمراً محـدوداً. وتقرر الشواهد الفلكية أن الكوْن يتسع بالتسلسل الدائم، وأن كل مجاميع، ومجرات النجوم، والشموس، والأجرام، والكواكب، والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة عن بعضها البعض، بعد أن خلقت في البداية مجتمعة؛ ومن ثم تفرقت، وتباعدت، وما زالت تتباعد بفعل عوامل الحركة، والحرارة، وإلى نهايتها المحتومة، وعندها تكون نهاية الكون، والحياة.

ويقـدر علمـاء الفلـك أن الكـون تخلّـق نتيجـة انفجـار فوق العادة وقع منذ . . .، . . .، . . .، ٥٠٠٠ سنة.

إن التقدير العلمي الفلكي بأن للكون عمراً محـدوداً يتنافى مع القول بأنه أزلي سواء في نشأته، أو في نهايته. ويؤكد أنه مخلوق، وله خالق، وهو الله تعالى. وإنجازاتهم العلميـة تثبت ذلك، وكذلك اعترافاتهم، ومنها قول العالم الأمريكي المتخصص في علم الحيوان «إدوارد لوثر كسيل»، وبالحرف الواحـد: «وهكذا أثبتت البحوث العلميـة ـ دون قصد ـ أن لهذا الكوْن بداية؛ فأثبتت تلقائياً

وجود الإله؛ لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول، وهو الخالق الإله»[1].

إن مجالات الأدب، وبحوث العلوم الإنسانية البحتة حُبْلى بأسماء شعراء المجون، والتغزل بالنساء، ومنهم الشاعر نزار قباني، وخاصة في قصيدته حُبلى، والتي يتغزل فيها بجسد المرأة عضواً عضواً؛ وعندما نراه ينتقل بشعره فجأة إلى مجال السياسة، ويشتم السياسيين؛ فإن هذا لا يعنينا في هذا المقام؛ لأن شعره بنوعيه المجوني، والسياسي لا يقود إلى معرفة الله، ولا يصلح دليلاً على وجود الله، ويبقى هو ومن هم على شاكلته ضمن من قال الله تعالى فيهم: **﴿والشُّعَراءُ يَتبِعُهُم الغَاوُونَ﴾** [الشعراء: ٢٢٤]. وأن يتخذ الحزب الجمهوري الأمريكي الفيل شعاراً له، وأن يتخذ الحزب الديمقراطي الأمريكي الحمار شعاراً له، فإن هذا لا يعنينا في هذا المقام، لأن مثل هذه الشعارات الحيوانية لا تقود إلى معرفة الله، ويبقى أصحابها لعدم إيمانهم بالله ضمن من تتناولهم الآية الكريمة: **﴿أُولئِكَ كَالأنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾** [الأعراف: ١٧٩].

ولكن الذي يعنينا هنا، ونعجب، ونتعجب له كيف أن علماء مثل هذه الأحزاب الأمريكية، والأوروبية ـ وهم الأكثر تقدماً في العلوم الفلكية، والبيولوجية ـ كيف أن إنجازاتهم العلمية كلها تقود إلى الله تعالى ثم لا يؤمنون به؟! وكيف أن مكتشفاتهم الفلكية تدل على وجود الله تعالى ثم يكفرون به؟! وكيف أن علومهم المادية كلها تقرر أن الكون ليس أزلياً، وأن له بداية، وأن له نهاية، وأنه مخلوق ثم لا يؤمنون بالله خالقه، وخالقهم؟!! إن علماء الحضارتين الرأسمالية، والشيوعية من يهود، ونصارى أثبتوا بمنجزاتهم العلمية وجود الحقيقة اليقينيّة الإلهية ثم كفروا بها، إن مثل هؤلاء الذين يؤمنون بحدوث الكوْن، وعدم أزليته، وحقيقة خلقه، ولا يؤمنون بخالقه كمثل من لم ينتفع بعلمه، وقاده إلى النار، ومثلهم كمثل الذين تتناولهم الآية الكريمة: **﴿مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لم يَحمِلُوها كَمَثَلِ الحمارِ يَحمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ القومِ الذينَ كذّبُوا بآياتِ اللّهِ واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ﴾** [الجمعة: ٥].

---

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ص ٥٠ .

ونخلص مع علماء التوحيد إلى أن لكل حادث محدث، وخالق، وأن هذا الكون حادث، فلا بد أن يكون له خالق.

ونختم البحث حول قضية قدم العالم، وحدوثه بما قاله أبو حامد الغزالي عن إنّ البرهان ملزم بالقول بحدوث العالم، ونفي قدمه، وبناء على ملاحظة الحركة، والسكون: إن دورة من الفلك إما أن تكون شفعاً، أو وتراً. فإن كانت شفعاً، فقد أتمت عدداً فردياً؛ وإن كانت وتراً، فقد أتمت عدداً زوجياً. إذن فالعدد السابق على كلا الحالَيْن محدود. ولما كان محدوداً، فهو حادث قطعاً. ولو استمر الناقد، فقال: إن أصل العالم «هيولاة» قديم، والحركة طارئة، قلنا له: من أين طرأت الحركة به، فهو إذن إقرار منه صريح بوجود مرجّح آخر أثّر على العالم بإيجاد الحركَة؛ بل هو استعجال فاصل للإقرار بوجود خالق للعالم. فالناقد بين أمرَيْن: إما أن يرجع إلى قولنا بالحدوث، فيعترف بالخالق؛ أو أن يقر بوجود المرجح، وهو اعتراف بالخالق. فنقد الناقد واهٍ، والقول بقدم العالم باطل لا يسنده برهان»[1].

٢ ـ **وبالنسبة لصُدْفة الكوْن**: يروّج علماء المادة من الرأسماليين والشيوعيين لنظرية تكوّن الكوْن بالصُّدفة. ويعتقد السير «جيمس جينز» أن قانون الصُّدفة صحيح، وثابت، وينطبق على قوانين الصدفة الرياضية المحضة.

ويقول أحد العلماء الأمريكيين: «إن نظرية الصُّدْفة ليست افتراضاً، وإنما هي نظرية رياضية عليا؛ وتطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية؛ وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الحق، والباطل. وللتدقيق في إمكان وقوع حادث من نوع معين، وللوصول إلى نتيجة يكمن في معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة»[2].

ويروج هكسلي» لنظرية صُدْفَة الكون، بالهذيان الافتراضي، وَلَغَطِ القوْل، فيقول: «لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير. فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلّت تدور في المادة لملايين السنين»[3].

---

(١) سعيد حوّى ـ الله. ص ١٢٢.

(٢)(٣) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ٦٥.

وتعني مثل هذه الأقوال أن الكون بذراته، ومخلوقاته تكوّن بطريق الصُّدْفَة. أي أن الجزيئات الكهربائية التي تتكون منها ذرات هذا الكون وجدت بطريق الصُّدفة؛ وكون بعضها موجباً، والآخر سالباً جاء صُدْفة؛ والتقائها ببعضها جاء صدفة، ومجموعة تدرجت من الواحد إلى ٢٣٨ من الجزيئات الموجبة شكلت مع بعضها نواة بالصّدفة، وأن دوران الالكترونات السالبة حول النواة تم صدفة؛ وحصول الفراغات بين الالكترونات، والنواة، والتي لولاها لكانت الأرض بحجم بيضة الدجاجة جاء صدفة. ووجود المدارات للالكترونات، والذرات، والنجوم، والكواكب جاء مصادفة. واتحاد العناصر، والذرات، واجتماعها لتكوين النجوم، والشموس، والكواكب جاء صدفة. وترتيب، ووجود، ودرجات الحرارة في المخلوقات كلها جاء صدفة؛ ودوران النجوم، والكواكب في مدارات محددة ولا تتعداها، وحقيقة: وكل في فلك يسبحون جاء مصادفة. وتكوّن الأرض، والسموات، وموجوداتها، ومكوناتها، وذراتها، ومخلوقاتها، وعناصرها تمّ صدفة. ووجود الحياة، وأجهزتها، وهوائها، ومائها جاء صدفة. ووجود الإنسان، بخلاياه، وجسده، وأجهزته، ومنها: الدموية، والهضمية، والعصبية، والتناسلية، والبولية، وتركيبها، وعملها جاء صدفة. ووجود الحيوانات، والأشجار، والجمادات، والبحار، والأنهار، ومكوناتها، ومواقعها، وأجهزتها، وحياتها، ومماتها جاء صدفة.

وبكلمة واحدة: إنّ الكون بمخلوقاته وجد صُدْفَةً. وهذا كله لا يقبل به أحد أوتي ذرة من عقل، أو علم.

ويمكننا تفنيد قضية الصدفة هذه استناداً إلى قوانين أصحاب هذه الفرضية الوهمية، وأول هذه القوانين قانون الصدفة ذاته، وهو يعني: «أن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد، وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة».

فكلما قُلَّ عدد الأشياء المتزاحمة، ازداد حظ المصادفة من النجاح؛ وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة. فإذا كان التزاحم بين شيئيْن اثنيْن متكافئيْن يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد اثنيْن. وإذا كان التزاحم بين عشرة، يكون حظ المصادفة بنسبة واحد إلى عشرة. وإذا تضخمت النسبة العددية تضخماً هائلاً، يصبح حظ المصادفة المستحيل، والعدم، والإستحالة.

فإذا طبقنا هذا على الذرة الواحـدة؛ فإن وجودها، ومكوناتها: البروتون، والإلكترون، والنيترون، والنواة، وتركيبها، ودوران الإلكترون فيها، والسرعة الهائلة لهذا الدوران، ووجود الفراغ بين الإلكترون، والنواة أن يحـدث هذا صدفة، فهذا ضرب من الاستحالة.

وأضف إلى ذلك أن الكون بمخلوقاته يتكون من بلايين، بلايين إلى ما لا نهاية من الذرات التي تتحرك، وتعمل؛ وبذلك يستحيل أن يوجد هذا الكون صدفة.

ولتوضيح المسألة أكثر نقول: إنه بالنّسبة للخلية الحية الواحـدة، فإن البروتين فيها يتكون من خمسة عناصر هي: الكربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد ذرات الجزيء البروتيني الواحـد ٤٠٠٠٠ ذرة. وحتى يتكوّن جزيء بروتيني واحـد بالصُّدْفَة فإنه يحتاج إلى بلايين من العناصر، والعمليات، والمواد التي يجب أن تختلط ببعضها، وخلال بلايين من السنين. أي يحتاج إلى كميـة من المواد أكبر من المواد التي يتكون منها الكون؛ وإلى ملايين من السنين أكبر من عمر الكوْن الذي هو خمسة بلايين سنة. وقد قام العالم الرياضي السويسري «تشارلز يوجين جاي» بحساب هذه العوامل جميعها؛ فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحـد إلاّ بنسبة واحـد إلى عشرة مضروباً بنفسه مائة وستين مرة. وهو رقم لا يمكن التعبير عنه بكلمات. ويقول «ليكونت دي نوي»: لتكوين جزيء بروتيني واحـد يتطلب حجماً أكبر من الكون، وبلايين من السنوات لا تحصى، وقدرها العالم السويسري المذكور بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين.

وقد حسب العالم الإنجليزي «ج. ب. ليتز» الطرق، والعمليات التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في جزيء بروتيني بالصدفة، فوجد أنها تبلغ عشرة مضروبة في نفسها ٤٨. أي ملايين العلميات، وهذا مستحيل. هذا بالنسبة لتكوّن جزيء واحـد من البروتينات داخل الخلية الحيّة الواحـدة، فما بالك بالنّسبة لتكوّن خلية واحـدة بالصدفة، أو ملايين من الخلايا؛ فهي تحتاج إلى مواد، وعناصر، وعمليات، وتفاعلات، وسنين تبلغ بلايين البلايين، وإلى رقم لا يستطيع العقل

البشري تخيله. فما بالك إذن بالنسبة لتكوّن الكوْن كله بالصدفة، فكم سيحتاج من هذه المواد، وهذه السنين؟! فهذا الاستفهام التعجبي نترك الإجابة عنه لهؤلاء العلماء الماديين، والذين أعمى بصائرهم الضلال، ويقولون: إن الكون وجد صدفة. ألا بئس الذنب الكفر بعد الإيمان. ونقصد به الإيمان الفطري.

ولو افترضنا أن المادة التي يتكون منها الكون خلقت نفسها، وبالصُّدْفة، وخلال بلايين من المواد، والتفاعلات والسنين؛ فإن هذا الإفتراض لا يصلح أيضاً لتفسير نشأة الكون بالصُّدْفة؛ لأنه لا يوجد شيء يضمن حدوث كل هذه الأمور على وتيرة واحدة، فقد يحصل اختلال في التفاعلات، وقد تحصل صدفة أخرى تمنع من حدوث صدفة نشْأَة الكون.

وكذلك لو افترضنا أن كل التفاعلات، والأمور اللازمة لنشأة المادة صدفة قد تمت كما يجب، فإن النتيجة تبقى ضمْن الاحتمال، والظنيّة، وليس القطعية؛ فإن قانون الصدفة الرياضي لا يؤكد ضمان حدوث الصدفة في تكون المادة والكون، وبشكل قاطع.

وكذلك لو افترضنا أنه تم تكوين جزيء بروتيني واحد بالصُّدفة؛ فإن السؤال الذي يبقى مطروحاً: من أين له بالحرارة، والحياة التي تمكنه من أن يندمج في الخلية، ويحيا معها؟!!.

إن قانون الصدفة الرياضي، وقد فشل في إثبات تكوين جزيء بروتيني واحد داخل الخلية، فكيف له أن يثبت تكوّن خلية واحدة، أو ذرة واحدة من ذرات الكون بالصدفة؟!! وبالتالي كيف، ولأصحابه أن يثبتوا تكوّن الكوْن كله بالصدفة؟!! **﴿سَنَجْزي الذينَ يَصْدِفونَ عنْ آياتنا سوءَ العذابِ﴾** [الأنعام: ١٥٧].

لقد أكد العالم الفرنسي «الكونت دي نواي» أنه ولأجل وقوع حادث بالصّدفة كتكّون جزيء بروتيني واحد في الخلية الواحدة، أو الذرة الواحدة يجب أن تتوفر مقادير من الأزمان، والمواد، والفضَاء اللانهائي أكثر بكثير من الموجود منها في هذا الكون، وأكثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على الأرض.

وهو يرى: أنه لأجل وقوع حادث بالصدفة نحتاج إلى كوْن يسير الضوء في دائرته ٨٢ سنة ضوئية مضروبة في نفسهما (عشر مرات). أي ٨٢ إلى جانب عشرة سنين ضوئية. وهذا أكبر بكثير من حجم الضوء الموجود في كوننا الحالي حيث أن ضوء أبعد مجموعة من النجوم في كوننا يصل إلينا في بضعة ملايين من السنين الضوئية. وإذا كان عمر الكون نفسه على تقدير العلماء الماديين أنفسهم هو ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٥ سنة. فهذه تعتبر مدة قصيرة بالنسبة للمدة التي يحتاجها تكوّن جزيء بروتيني واحد حسب قانون الصدفة الرياضي. فالكون إذن يستحيل أن يكون قد وجد صدفة. إنْ همْ إلاّ يخرصون.

إن قانون الصدفة الرياضي ـ وقد فشل في إثبات تكون جزيء بروتيني واحد بالصُّدفة ـ فالأولى بالتالي أن يفشل في إثبات الكون كله بالصُّدفة، وكذلك مخلوقاته، وأحيائه، ونباته، وحيواناته، وبشره، وما أصح وما أفضل ما قاله في هذا المقام عالم الأحياء الأمريكي «مارلين ب. كريدر»: «إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء»[١].

إن قانون الصُّدفة الرياضي إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على سخافة عقول علماء حضارة المادة من نصارى، ويهود؛ ومن رأسماليين، وشيوعيين. ولنترك المجال الآن لعلماء التوحيد الإسلامي حيث يتحدثون عن الكوْن كحديثهم عن كل الممكنات التي يمكن أن تكون، ويعددون هذه الممكنات، فيقولون:

الممكنات المتقابلات = وجودنا، والعدم صِفاتُ.
أزمنة، أمكنة، جهات = كذا المقادير رَوىٰ الثقاتُ.

فإذا كان هذا الكون من الممكنَات، فكل ممكن يمكن أن يكون موجوداً، ويمكن أن يكون معدوماً. ويمكن أن يكون على صفة، ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تعدّ. ويمكن أن يكون في زمان، ويمكن أن يكون في أزمنة أخرى. ويمكن أن يكون في مكان، ويمكن أن يكون في أمكنة أخرى. ويمكن أن يكون بمقدار، ويمكن أن يكون بمقادير أخرى. وبالتالي، فكل جزء من أجزاء هذا الكون تنطبق عليه هذه المعاني. فإذا كان من بين هذه الممكنات كلها يُختار

---

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ٧٠.

واحـد، هـو الأحكـم، والأحسن، والأكثر نظاماً، ولـو كان غيره لكان الخلل، والفوضى؛ فلا بد إذن من وجود إرادة عليا رجحت أحـد وجوه الاحتمال، والإمكان[1].

إن قضية وجود الكون أعظم، وأعقد بكثير مما يصعب على الأذهان التصديق بأنه محض صدفة، وأن وجوده أوجدته عمليات الصدفة المادية. إنّ هذا الكون بنجومه، وشموسه، وكواكبه، وسمواته، وأراضيه يتكون من عناصر بلغت أكثر من مئة، وكل مخلوقاته تتكون منها، ولكن بنسب متفاوتة. فالهيدروجين مثلاً فيه بروتون واحـد، والكترون واحـد. بينما اليورانيوم فيه ٢٣٨ بروتون، و ٢٣٨ الكترون فكان مشعاً أكثر. وكل هذه النجوم، والشموس، والكواكب تدور في أفلاك لها لا تتعداها، وهذا مصداق قوله تعالى: **﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** [يس: ٤٠].

وبالرغم من عددها الهائل الذي يُقدر بالبلايين لا يصطدم جرم بآخر، وهذا مصداق قوله تعالى: **﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ﴾** [يس: ٤٠].

وإن الانتظام هذا ليس خاصاً بالشمس، والقمر وإنما ينطبق على سائر النجوم، والشموس، والكواكب.

وإنما ذكر الله الشمس، والقمر؛ لأنهما المعروفان أكثر عند العرب في بداية نزول القرآن.

إن هذا الكون بجودة خَلْقه، وتكوينه، وانتظامه، ومخلوقاته، وانضباطه، يستحيل أن يوجد بالصدفة. أو بإرادته الجمادية، أو الحيوانية؛ أو بقدرته العاجزة الاحتمالية، فلا بد من قوة أعظم من عظمة الكوْن خلقته، وضبطته. إنها القدرة الإلهية المطلقة، وإنها الإرادة الربانيّة الكاملة، وإنه الإله الذي وسع كرسيه السموات، والأرض، والذي أحاط بعلمه كل شيء؛ والذي تخبرنا عنه دلائل قدرته في آياته، وكتبه، ورسله، ووحيه، والذي تعلمنا بوجوده دلائل قدرته في العلم، والتعقل، والتفكر، والتأمل، والتدبر في مخلوقاته، وأولها هذا الكوْن العجيب؛ وبحيث وبكل ثقة نحكم أنه ونحن أمام هذه العظمة الكونيّة في الخَلْق،

---

(١) سعيد حوّى ـ الله. ص ٣٧.

والتدبير أنه يستحيل أن يجد قانون الصدفة الرياضي مكاناً له في هذا المقام، وأمام هذه الحقائق الخَلْقية الكونيّة العجيبة.

لقد مكنتهم إنجازاتهم العلميـة من رؤية آيات اللهِ الدالة على وجوده، وخلقه لهذا الكون، ولكنهم صدفوا عنها، وبذلك يصدق عليهم قوله ربهم فيهم: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وصَدَفَ عَنها سَنَجْزِي الذينَ يَصْدِفونَ عنْ آياتِنا سُوءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾** [الأنعام: ١٥٧].

ولعل أفضل تفنيد لنظرية صدفة الكوْن يكمن في الدخول ولو قليلاً في مكنوناته، وأسراره؛ وفي التعرف على روحه الدقيقة، والمنضبطة؛ وفي اكتشاف حقيقته، وانتظام مكوناته، ومنها:

١ ـ **نجومه، وشموسه، وأجرامه، وكواكبه**: والتي هي بعدد ذرّات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا، والتي لا حصر لها. ومنها ما يجري بمفرده، ومنها ما يجري مَثْنى مثْنى، ومجموعات. ويقدر علماء الفلك أن هذا الكوْن يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروباً هذا العدد في ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٥٠٠ من الملايين، وفي كل مجموعة منها يوجد مائة مليار من النجوم. ويقدّرون أن أقرب مجموعة من هذه النجوم يُقدر بعدها عنا ثلاثين ألف سنة ضوئية. وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة؛ وقطر هذه المجموعة الكبيرة مليونان من السنين الضوئية. الحمد لله على عظمته. ويقدر الفلكي الأمريكي «جيمس كوندون» عدد المجرات بمائة مليار مجرّة، وكل مجرّة تحتوي على مائة مليار نجم وكوكب.

وأقرب كوكب لنا هو القمـر حيث يبعـد عن الأرض ٠٠٠، ٢٤٠ ميل، ويكمل دورته حول الأرض في مدة تسعة وعشرين يوماً ونصف. وتبعد الشمس عن الأرض ٠٠٠، ٠٠٠، ٩٣ ميلاً. وتدور حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة في دائرة ٠٠٠، ٠٠٠، ١٩٠ ميل، وتستكمل هذه الدائرة مرة واحـدة في سنة واحـدة. وقطر الشمس ٠٠٠، ٨٦٥ ميل، وهي أكبر من الأرض بـ: ٠٠٠، ٢٠٠، ١ مرة. ودرجة حرارتها ٩٥ مليون درجة. وتدور حول الشمس تسعة كواكب مع الأرض. وأبعد الكواكب في نظامنا الشمسي إلى الشمس هو الكوكب «بلوتو» ويدور حولها في دائرة ٠٠٠، ٠٠٠، ٧،٥٠٠ ميل. وحول هذا الكوكب يدور واحـد وثلاثون قمراً. والسَّنَة عليه تعادل ٢٥٠

سنة من السنوات على الأرض والتي هي ٤/١ ، ٣٦٥ يوم وربع يوم.

وأقرب الكواكب إلى الشمس هو «عطارد»، ويبعد عنها مسافة ٣٦ مليون ميل. وعدد أيام سنته ٨٨ يوماً. ويليه في البعد «الزهرة»، ومتوسط بعدها عن الشمس ٦٧ مليون ميل. ثم الأرض ٩٣ مليون ميل. ثم المريخ ١٤٢ مليون ميل؛ ثم المشتري ٤٨٤ مليون ميل؛ ثم زحل ٨٨٧ مليون ميل؛ ثم أورانوس ١٧٨٢ مليون ميل؛ ثم نيبتون ٢٧٩٢ مليون ميل. وتدور المجرّة التي يقع فيها نظامنا الشمسي حول محورها، وتكمل دورة واحدة في ٠٠٠، ٠٠٠، ٢٠٠ سنة ضوئية.

٢ ـ **توازن الكون في حركته، وحركة نجومه، وكواكبه:** فالإلكترون، والأرض، والنجوم، والأجرام، والكواكب، والأقمار، والمجرّات كلها تدور عكس عقارب الساعة. ونسبة عنصري الماء تكون ١ ، ١١ من الهيدروجين، و ٩ ، ٨٨ من الأوكسجين. ويتكوّن غلاف الأرض من ستة غازات منها: ٧٨ في المائة نيتروجين، و ٢١ في المئة من الأوكسجين. ويضغط هذا الغلاف على الأرض بنسبة ١٥ رطلاً على البوصة المربعة. ويرجع الضوء، والحرارة، والأشعة السينية، والأشعة البنفسجية، وتحت الحمراء إلى شيء واحد هو القوة الكهربائية المغناطيسية، ولها جميعها سرعة واحدة، والاختلاف في اختلاف موجاتها. وترجع قوة الجاذبية إلى القوة الكهربائية المغناطيسية، وبالنسبة للأصل الواحد.

ولو انخفضت جاذبية الأرض إلى السدس، فلا يمكن لها أن تمسك بالماء، والهواء؛ وتتجمد ليلاً، وتحترق نهاراً. ولو تضاعفت جاذبيتها لتضاعف الضغط الهوائي على البوصة المربعة من ١٥ رطلاً إلى ثلاثين رطلاً.

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكاً بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالي، لما وجد الأوكسجين؛ لأن الأرض ستمتصه. ولو كانت البحار أعمق بضعة أمتار لانعدم الأوكسجين، وثاني أكسيد الكربون، لأن الماء سيمتصهما. وأن الأرض تدور حول محورها مرة واحدة كل أربع وعشرين ساعة بسرعة ألف ميل في الساعة، فلو انخفضت هذه السرعة إلى مئتي ميل في الساعة، لطالت أوقات ليالينا، ونهارنا عشر مرات. ولو ارتفعت الشمس قليلاً عما هي عليه الآن لبردت الأرض، وتجمدت؛ ولو انخفضت لاحترقت الأرض، وانعدمت الحياة. ولو ترتفع نسبة الأوكسجين عن ٢١ ٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق تصبح عرضة

للاشتعال. ولو كانت مياه المحيطات، والبحار حلوة غير مالحة، لتعفنت الأرض، وانعدمت الحياة. ولولا اتحاد الكلور مع الصوديوم لما كان ملح. ولو كانت الأرض كعطارد لا تدير إلاّ وجهاً واحداً للشمس، لكان جزء منها ليلاً دائماً، والآخر نهاراً دائماً؛ ولولا اتحاد العناصر مع بعضها لما أمكن وجود تراب، ولا ماء، ولا نبات، ولا حيوان. ولولا الجبال لمالت الأرض بما، وبمن عليها. ولو كان محور الأرض معتدلاً غير مائل وبمقدار ٢٣ درجة، لتجمعت قطرات بخار مياه البحار، والمحيطات، ولنزلت كأمطار فقط على القطبيْن الشمالي، والجنوبي. ولولا وجود الجاذبية لما تكونت الذرات، ولما تجمعت، ولما كان هناك أرض ولا شمس، ولا نجم. ولو كانت الالكترونات ملتصقة بالبروتونات لانعدمت الفراغات، ولأصبحت الكرة الأرضية بحجم بيضة الدجاجة. إن حكمة التدبر في الكوْن تقودنا إلى معرفة حقيقته، وإنه لم يوجد صدفة، وإن له خالقاً خلقه، فليس في الكوْن أي فطور، أو شذوذ، أو تفاوت. خلقه الله متوازناً، متناسقاً مصداق قوله تعالى: **﴿مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾** [الملك: ٣ ـ ٤].

إنّ الكوْن آية تدل على عظمة خالقها، ولكن الإنسان كفور؛ لقد وفّقهُ الله لرؤية آياته الكونية، ووعده بذلك، فقال تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آياتنا في الآفاقِ وَفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لهمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾** [فصّلت: ٥٣].

لقد أراهم الله آياته في الآفاق، وفي الأنفس، ولكنهم بدلاً من أن يؤمنوا بربهم، كفروا به، وازدادوا بُعداً. حادث كوني لفت نظري إن دل على شيء فإنما يدل على جهالة الإنسان، وعدم تدبره في مخلوقات الله.

هناك لاعب كرة قدم جزائري اسمه «الأخضر بلّومي» شارك في إحدى مسابقات كرة القدم الدولية، وضرب كرة القدم، وعلّقها في الفضاء، ولعلو شاهق نوعاً ما، ولعدة ثوانٍ، وفي هذه الأثناء ارتفعت ملايين الرؤوس، وفتحت ملايين من أفواه الناس المتفرجين في الملعب، وفي منازلهم حيث كانت آلات التصوير التلفزيونية تنقل المباراة عن طريق الأقمار الصناعية مباشرة إلى جميع سكان المعمورة، وشاهد الحدث أكثر من نصف سكان المعمورة البالغ خمسة مليارات

نسمة. لقد اندهشت هذه الملايين كيف علّق «الأخضر بلومي» كرة القدم الصغيرة، المملوءة بالهواء، والتي لا يتجاوز وزنها كيلو غرامين اثنين؛ اندهش هؤلاء لهذا الحدث؛ فقلت في نفسي: كيف لا تندهش هذه الملايين إلى تعلّق الأرض في الفضاء، وإلى علو أعلى، وبعظمتها، وبحارها، وجبالها، وحيواناتها، وأناسها، ونباتها، والأرض أصغر الكواكب بعد «بلوتو» على الأطلاق؟!! والمشتري أكبر من الأرض بثلاثماية مرة، والشمس أكبر من الأرض بمليون مرة، وكوكب الشِّعرى - الذي عبده العرب قبل الإسلام - أكبر من الشمس بسبعين مرة. أي أكبر من الأرض بسبعين مليون مرة. وهو الوارد ذكره في قوله تعالى: **﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعرى﴾** [النجم: ٤٩]. وهناك بلايين النجوم، والشموس معلقة في السماء، وأكبر من الأرض، والشمس بملايين المرات، وكل هذه النجوم، والكواكب تسبح في أفلاك خاصة بها، وكل نجم، وكوكب في فلك لا يتعداه، وفي انضباط عجيب.

وبحيث لا يصطدم نجم بآخر. ألم يأن لهذه العقول البشرية أن تندهش لتعلق ولخلق، وانضباط، وانتظام هذه السيارات العظيمة؟! وأنه من المستحيل أن يوجد هذا الكون، وبهذه العظمة بطريق الصدفة!! وأن القدرة الإلهية العظيمة، والأعظم من مخلوقاتها هي الخالقة، وهي الضابطة، والمنظمة لهذا الكوْن!! ومن أجل عظمة خلق النجوم أقسم الله بها، ووصف القسم بها بأنه عظيم فقال تعالى: **﴿فلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجوم، وإنّه لقَسَمٌ لو تعلمونَ عظيمٌ﴾** [الواقعة: ٧٥ - ٧٦]. إن رؤيتنا لعظمة آيات الله توجب الحمد لخَالِقَها مصداقَ قوله تعالى: **﴿وَقُلِ الحَمْدُ لِلّهِ سَيُريكُمْ آياتِه فَتَعرِفُونَها وما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾** [النمل: ٩٣].

إن حضارتيْ المادة الرأسمالية، والشيوعية أساءتا التعامل مع الله بتفسيراتها المادية الخاطئة للكوْن، وأنه لا خالق له، فكان أصحابها من يهود، ونصارى، وبوذيين غير متحضرين، ولو أنهم متقدمون مدنيًا.



إساءَة الحضَارة الرأسمالية والشيوعية إلى الله من خلال نظرتهما إلى الحياة

وذلك من خلال تفسيراتها المادية غير الروحية للحياة. لقد أنكرت هذه الحضارات المادية خلق الإله للحياة؛ وزعم علماؤها أن الحياة خلقت نفسها بنفسها؛ وأن المادة وهبت لنفسها روح الحياة؛ وخلقت القوانين المنّظمة لسير حياة جميع المخلوقات. وادعى هؤلاء العلماء الملحدون أنّ الحياة بدأت من تلقاء نفسها خلية في شكل جرثومة جاءت من بعض الكواكب إلى الأرض ثم أخذت تتكاثر بطريقة الانقسام أولا، ومع عوامل التطور الحياتية ارتقت وسيلة التكاثر إلى طريقة التزاوج بعد أن أنشأت الخلية عوامل بقائها بخلقها للأزواج من الذكور، والإناث. وإلى أن تنوّعت المخلوقات، وإلى ملايين من الأجناس من الحيوانات، والبشر، والنباتات، والزواحف، والحشرات، والطيور، وغيرها من أحياء الكرة الأرضية. ويدعمون خبطاتهم غير العقلانيّة هذه بالقول: بأن أصل الأحياء الأولى مثل: خلية الأميبا، وغيرها من الحيوانات ذات الخلية الواحدة ما زالت موجودة إلى الآن، وتحافظ على بقائها، ونسلها بطريقة الإنقسام، وتغذية نفسها بإحاطة الفريسة بجسمها. وإن الخلية الواحدة على صغرها، وبساطتها تقوم بجميع وظائف الحياة من: تغذية، وتنفس، وحركة، ونمو، وتكاثر، وإفراز، وتلاؤم مع البيئة، وحماية، وتوليد حرارة؛ ومثلها مثل أي كائن آخر أكثر منها تعقيداً.

وبمثل هذه المسلّمات الوهمية، والإفتراضات الخيالية روَّجوا لعقائدهم المادية حول الحياة؛ والتي لا تصمد ولو للحظة واحدة. أَمام سؤال واحد يُوجَّه إليهم، وهو: كيف بدأت الحياة في الخلية الأولى أو الجرثومة الأولى؟!! ومن أين جاءت لها الحياة؟!! وما سرُّ هذه الحياة، وما طبيعتها، وما كنهها؟!!

وَمَن الذي وهبها لها، وكيف، ومتى، وأين، وأنّى؟!! وكيف تعطى لها، وكيف تؤخذ منها وكيف تموت؛ وما سر فنائها؟!! وإن تعجب فعجب قولهم بالوهميات لإثبات اليقينيات، أو نقضها!!!.

إن عملية تكاثر الخلية الأولى ونزولها من الكواكب على الأرض تبقى - وعلى سذاجة القائلين بها - أهون بكثير من تفسير كنه الحياة، وطبيعتها، وكيف جاءت هذه الحياة للخلية الأولى. إن استدلالاتهم التحليلية، والعلميـة، والقائمة على الملاحظة، والتجربة لحياة الخلايا الحية الأولى قد يقبلها العقل، ويستسيغها الفكر؛ لأن هذه تحليلات لمظاهر حياة تلك الخلايا، وكيف تتكاثر، وتتغذى، وتنمو، وتتحرك؛ ولكن هذه التحليلات لا تجيب عن الأمر الأهم، وهو أمر الحياة ذاتها. لقد بَنَوْا من آثار الحياة، ومظاهرها قصوراً لنظريات علميـة لا تجيب بأي حال من الأحوال عن ماهية، وكيفية تولد هذه الحياة، وروحها. والتي يبقى أمرها مغيبًا حتى بالنسبة للأنبياء، والرسل من البشر، والملائكة مصداق قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥].

أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة - وهو يتوكأ على عسيب - فمرّ بنفر من يهود فقالوا: لو سألتموه! فقالوا: حدِّثنا عن الروح؟! فقام ساعة، ورفع رأسه، فعرفت أنه يُوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[1] رواه البخاري. يعجب العالم الملحد بإلحادِهِ العقدي، وكفره العلمي ويحاول بهما إثبات غير المعقول حتى من الناحية العلميـة؛ لأن تفسيراتهم المادية للحياة تقتضي خلق الحياة من الجماد، وأن يَخْلُق غيرُ الحي الأحياءَ، وأن يحيـي الميتُ الموات. وما أن تصل سخافاتهم الفكرية إلى مثل هذه الخيالات العلميـة حتى ينزل بعضهم إلى الساحة العلميـة ليخفف من وطأة مثل هذه النتائج الإلحادية على النفوس أمثال العالم «بخنز» وهو من أشد المتحمسين إلى نظرية «داروين» في النشوء والارتقاء حيث يقول: «إِنّ البتّ في أمر التولد الذاتي للخلية الأولى التي نشأ عنها الأصل الأول غير متيسّر؛ لأن الأحوال المناسبة لتولد الخلايا الأولى تولداً ذاتياً غير معروفة.

---

(١) دكتور غازي عناية - أسباب النزول القرآني. طبعة بيروت. ص ٢٦٠.

والخلية على بساطتها ذات بناء، وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة. بل إن ظهورها من الجماد في نظر العلم معجزة ليست أقل بعداً عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأساً»[1].

يعترف الملحدون العلماء بسر روح الحياة، وغيبيتها، ولكن من طرف خفيّ؛ ويناقضون أنفسهم عندما يعترفون أن الحياة لا تهب من الجماد، ومن ثم يعجزون عن الإجابة عن كيفية وجودها في الخلية البسيطة الأولى. كما يعترفون أن الحياة لا تنشأ كيماوياً، ولا تصنع في المعامل، والمختبرات؛ ومع ذلك يصرّون على عنادهم الإلحادي بغير حق، وبلا دليل. فهذا هو العالم الشيوعي الملحد «أوبارين» رئيس المعهد الكيميائي في روسيا، حاول أن يصنّع الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي، وبعد مرور عشرين عاماً من جهوده المضنية هذه أعلن سنة ١٩٦٢ م. لوكالات الأنباء العالمية: أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المخبر، والعلم لا شأن له إلاّ بالمادة المحسوسة. وبدلاً من أن يعترف بالإلٰهِ خالق الحياة، استمر على إنكاره حيث قال بعد ذلك: إن إيجاد الحياة كيميائياً ممكن، ولكن في كواكب أخرى[2].

يخوض العالم «ليتز» في عالم أسرار حياة الخلية ليؤكد أنها خارجة عن إرادة، وقدرة البشر حتى ولو كانوا علماء. ويذكر أن كل خلية من البروتين تتألف من مجموعة من ذرّات تشكل مئات من الحلقات، المكونة من أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين؛ وكل منها له مكانه، ووظيفته في الخلية، وكذلك نسبته، ومقاديره. ومع ذلك قد نراها، وكأنها على ترتيب واحد، ونسبة واحدة، وبغير اختلاف، أو شذوذ. وتنبثق فيها الحياة كل لحظة لتعطي الخلية الحياة، ولتعطي العضو الحياة. والعضو جزء من جهاز، والجهاز جزء من جسد، والجسد كله مكون من بروتينات، وخلايا، وأعضاء، وأجهزة؛ وكلها متداخلة، ومتفاعلة، ومنسجمة فيما بينها. والجسم الحي الذي تتكرر فيه هٰذه المعجزات كل لحظة من لحظاته لا تزال فيه بقية من عجب، وأعجب من كل ما سبق، وهو أن ذرات الخلية، وذرات الخلايا تتجمع، وتلتئم، وتتفرق، وتنفصل، وعلى نحو يضمن لها التجدد، والحياة. وكل حي يتألف من جنسيْن، وتخرج من كل منهما خلية

---

(١)(٢) سعيد حوّى ـ الله. ص ٥٧ ـ ٦٠.

واحـدة يتكوّن منها حيّ جديد. وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجاً، وتارة أخرى أفراداً، وعلى الوضع المطلوب في المرحلة المطلوبة. ويتفق عددها في كل نوع من الأنواع الحيّة بغير زيادة، ولا نقصان؛ وينطبع كل حي على عادات، وغرائز تسوق إلى التناسل في موعده المقدور سواء كان خلية واحـدة، أو فيروسات، أو حشرات، أو زواحف، أو حيوانات، أو بشر آدميين[١].

إن علماء الإلحاد يعلمون جيداً أن المادة لا تخلق نفسها، وأن الذرة لا تهب لنفسها الحياة، وأن الخلية لا تعقل قوانين حياتها. وكل ما هنالك أنها تحيا، وتتكيّف مع قوانين بيئتها كقوانين الجاذبية، والحرارة، والبرودة، ومن ثم تطيع قواعد الالفة الكيماوية. فلا هي، ولا نحن ندري كنه الحياة التي وهبها الله لها، وهي أصغر الأحياء، والتي وهبها الله لنا، ونحن أرقى الأحياء.

إن ظاهرة الحياة جدّ معقدّة. وقد نلاحظ، ونحيا، ونعيش آثارها؛ ولكنها تبقى سراً لا يعلمه إلاّ من له القدرة على خلقها، ومن له الإرادة على إحيائها. إنّ من عبث القول: أنْ تخلق المادة لنفسها أسماعاً، وأبصاراً، وأفئدة تحيا، وتعيش بها؛ ولو أنها تسمع، وتبصر، وتكيّف حياتها. وذاتها مع ظروف بيئتها بانتظام، وانضباط. ولا عجب في ذلك؛ فالآلات في المصانع تعمل بانتظام، وتطيع الأوامر، ومع ذلك فهي لم تخلق نفسها، وهناك صانع صنعها. وما ينطبق على الخلية ينطبق على الجسم الحي الذي يتألف من هذه الخلية، وملايين الخلايا سواء كان جسم حشرة، أو حيوان، أو إنسان، أو نبات. فإن خلايا هذا الجسم، وأجزاءه، وأعضاءه، وجوارحه، وأجهزته كلها تعمل بانتظام، وتتآلف فيما بينها، وتتعاون في أداء وظائفها، ولا تضل إحـداها عن طريقة عملها؛ وإن مرض أحـدها تعالجه الأخرى، وكما يقول «لستر جون زمرمان»: «هناك بلايين من الأحياء على سطح وفي الأرض تنقسم إلى آلاف الأجناس، والأنواع؛ وكل جنس، وكل نوع له خصائصه، ومزاياه، وشكله، وصورته، وطرق تغذيته وطرق حياته، وكل فرد من أفراد كل جنس يتمتع بصفات وخصائص هذا الجنس، وكل تعقيدات الحياة»[٢].

---

(١) سعيد حوّى ـ الله. ص ٥٧ ـ ٦٠.

(٢) سعيد حوّى ـ الله. ص ٦٣.

وتتمتع كل أنواع هذه المخلوقات من الحشرة، والطير إلى الإنسان بأسباب حياتها التي خلقها الله لها من رزق، وغذاء، وشراب، وحركة، وتناسل، وصدق ربنا إذ يقول في هذا المقام: **﴿ومَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ما فرّطْنا في الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ثُمَّ إلى رَبّهِمْ يُحْشَرونَ﴾** [الأنعام: ٣٨].

فلا تفسر حياة هذه الدَوابّ إلا بالله تعالى، ولا تعلّل نشأة الحياة فيها إلاّ بالله، ولا تكشف حقائق وجودها، وحركتها، وأخذها بأسباب حياتها، والمحافظة عليها إلاّ بالله. إنّ الإيمان بالله هو الجواب الوحيد الشافي لجميع الأسئلة المتعلقة بالحياة.

وكما يقول الإمام البيضاوي: إنّ ذكر الدواب في الآية، وشبهها بالإنسان إنما قصد به الدلالة على قدرة الله، وشمول علمه، وسعة تدبيره، وأنه قادر على أن ينزل الآيات.

إن العقلانية السليمة تستدعينا القول: بأن الخالق هو الذي يمنح الحياة. وإن خالق الدواب هو الذي أنشأ فيها الحياة؛ وأنّ الله تعالى الحي، الخالق، الرازق هو وحده القادر على نفخ روح الحياة في أجسام جميع الكائنات؛ وهو وحده القادر على سلب الحياة منها، وعلى إعادتها إليها ثانية. قال تعالى: **﴿وَهُوَ الذي يُحْيـي وَيُميتُ﴾** [المؤمنون: ٨٠].

وقال تعالى: **﴿وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دابّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنهُمْ مَنْ يَمْشي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشَي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخلُقُ اللّهُ مَا يَشاءُ إِنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قديرٌ﴾** [النور: ٤٥].

قال ابن كثير: «يذكر الله قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها، وألوانها، وحركاتها، وسكناتها من ماء واحد»[1].

وقال أبو حيّان: «قدّم ما هو أظهر في القدرة، وأعجب؛ وهو الماشي بغير

(١) محمد علي الصابوني ـ مختصر ابن كثير. جـ ٢ ص ٦١٣.

آلة من رجل، وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع»[1].

وقال الفخر الرازي: «واعلمْ أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال، والاستدلال بها على الصانع ظاهر؛ لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع، لكان في الكل على السويّة. فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها، وأعمارها، ومقادير أبدانها لا بدّ وأن يكون بتدبير قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون»[2].

لقد أثبت الله عجز المخلوق عن الخلْق، بل وعجز أرقى المخلوقات، وهو الإنسان عن خلق أصغرها وهي الخلية الواحدة، أو الذرة الواحدة فقال تعالى: ﴿**وَالذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخلقُونَ**﴾ [النحل: ٢٠].

ولو سرنا قليلاً مع عُزْفِ علماء حضارات المادة في تفسيرهم لنشأة الحياة على الأرض لوجَدنا أن أصغر مخلوق وهو الخلية الواحدة في الأحياء، والذرة في غير الأحياء قد خلقت نفسها بنفسها، وهبت لنفسها الحياة؛ وأن الحشرات، والزواحف، والطيور، والبشر قد خلقت نفسها، وخلقت خلايا، وأعضاء، وأجهزة أجسامها، ولكن كيف، ومتى، وأين، وأنّى، وما سِرُّ حياتها؟!! نجدهم يغلقون عقولهم، ولا يجيبون.

وعندما يحتكمون إلى فطرتهم الإيمانية، والتي أخبرنا، وأخبرهم عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هَذا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فإنهم لا يستطيعون غلق عقولهم عن الإيمان بربهم، خالقهم، وخالق كل شيء. ولذلك نجد معظم علماء المادة يقفون عند توحيد الربوبية، ويؤمنون أن الله ربهم خالقهم، هو الذي أحياهم، وهو الذي يميتهم، ويرزقهم، ويوفقهم، ويمطرهم، ويشفيهم، ومع ذلك لم يؤمنوا بتوحيد الألوهية.

إنهم، وبفطرتهم الخَلْقية، وبعقلانيتهم المخلوقة، وبعلومهم المستفيضة

---

(١) أبو حيان ـ تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ٤٦٦.

(٢) الفخر الرازي ـ التفسير الكبير. جـ ٢٤. ص ١٩.

يؤمنون بتوحيد الربوبية وذلك؛ لأنهم رأوا آياته الكونيّة في السموات، وفي الأرض، وفي أنفسهم؛ ويؤكد الله تعالى: ذلك بقوله: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتهمْ مَنْ خَلَقَ السّمواتِ وَالأَرْضَ لَيَقولُنَّ اللّهُ﴾** [لقمان: ٢٥]. وقوله: **﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فيها إِنْ كُنتُمْ تعلمونَ، سيَقُولُون لِلّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَرونَ﴾** [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥]. وقوله: **﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السّمواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العرشِ العظيمِ، سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾** [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٧].

وقوله: **﴿قُلْ مَنْ بيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ يُجيرُ ولا يُجارُ عَلَيهِ إِنْ كُنتُمْ تعلمونَ، سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ فَأَنّى تُسْحَرُونَ﴾** [المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩].

لقد آمَنَ عُلَمَاءُ وكالة الفضاء الأمريكية «الناسا»، ورأيناهم، وسمعناهم يعلنون إيمانهم الربوبي على شاشات التلفزيون، ولقد آمن من قبلهم «أَيْنشتيْن» اليهودي الألماني، صاحب النظرية النسْبية، وأعظم علماء هذا العصر؛ ولكن لو سألتهم عن حقيقة إلههم، وربهم الذي آمنوا به، تجد عجب العجاب. فمنهم من قال: إنه الصنم، ومنهم من ازداد تواضعاً، وقال: إنه يَهْوَه، ومنهم من اعتقد أنه أصاب، فقال: إنه المسيح بن مريم. لقد أملى عليهم عنادهم العلمي الإلحادي أن يفضّلوا لأنفسهم أرباباً من دون الله؛ ليلهوا به أنفسهم؛ وليؤكدوا للآخرين أنهم مؤمنون. ومن أجل ذلك عبد اليهود «يهوه»، وعبد النصارى: «المسيح عيسى»، وعبد البوذيون «بوذا»، وعبد الهندوس «رام»، وهم وبما يعبدون من أصنامهم فرحون. لقد ضربوا لله أمثالاً آلهة، فضرب الله مثلاً لهم ليتوبوا إلى رشدهم، ويؤمنوا بخالقهم الذي وهبهم الحياة التي يتمتعون بها، والمثل هنا علمي، وهم علماء كما يدعون، فقال تعالى: **﴿يا أيُها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لهُ إِنّ الذينَ تَدْعونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالمَطْلُوبُ﴾** [الحج: ٧٣]. وإذا كانت أصنامكم، وآلهتكم هذه لا تستطيع خلق ذبابة واحدة، فكيف يليق بكم يا علماء القرن العشرين، وكل العصور أن تجعلوا لأنفسكم من هذه: آلهة تعبدونها من دون الله؟!! قال الإمام القرطبي: «وخصّ الذباب لأربعة أمور: لهنته، وضعْفه، واستقذاره، وكثرته. فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان، وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله، ودفع أذّيته، فكيف يجوزوا أن يكونوا آلهة معبودين،

وأرباباً مطاعين؟!! وهذا من أقوى الحجة، وأوضح البرهان»[1] قال ابن عباس: الطالب هو الصنم. والمطلوب هو الذباب. وقال السدي: الطالب هو العابد؛ والمطلوب هو الصنم نفسه.

ومعنى قوله: ﴿**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمطْلُوبُ**﴾ أي لو سلب الذباب، واختطف شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به أصنامهم؛ فإن هذه الأصنام لا تستطيع إرجاع ما أخذه الذباب. وقد ثبت علمياً أيضاً أن الذباب عندما يأخذ الطعام يهضمه خارج جسمه وقبل أن يَبْلَعَهُ؛ وذلك بإفراز حامض عليه، فيهضمه ثم يبلعه، وبذلك لا يمكن استرجاع الطعام من الذباب حتى وقبل بلعه.

ما كان يليق بعلماء حضارة المادة أن يتخذوا أصناماً آلهة ـ كما فعل جهلاء القدامى من دون الله ـ فيبقى هؤلاء وأولئك في ضلال مبين كما قال تعالى على لسان نبيّه إبراهيم: ﴿**وَإِذْ قالَ إبراهيمُ لأَبيهِ آزَرَ أَتَتَخِذُ أَصْناماً آلهةً إِنّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبينٍ**﴾ [الأنعام: ٧٤].

وما كان يليق بعلماء هداهم الله إلى كثير من آياته أن ينحتوا تماثيل من حجارة يعبدونها من دونِ الله، فيبقى هؤلاء، ومن عملِ عملهم في ضلال مبين كما يقول تعالى على لسان رسوله إبراهيم: ﴿**إِذْ قَالَ لأَبيهِ وَقَوْمِهِ ما هَذِه التماثيلُ التي أَنْتُمْ لها عاكِفُونَ، قالُوا وَجَدْنَا آباءَنا لها عابدينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبينٍ**﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٤].

ولكن جريمة علماء المادة اليوم بكفرهم بالله أعظم؛ لأن كفرهم كفر علم، وجحودهم جحود فكر. وإن جريمتهم مزدوجة. إنهم خَلَقُوا لأنفسهم آلهة، ولم يحترموها، ووصفوها بصفات إنسانية بشرية مذمومة لا تليق بجلالها، وكبريائها.

لقد نعت مؤلفو سفر التكوين إلٰههم، ربهم أنه يحزن، ويندم، ويتراجع، ويخطىء، ويتعب، ويحرج، لقد وصفوه بأنه يتعب. «وفرغ الله في اليوم السادس من عمله، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله. وبارك الله اليوم السابع، وقدّسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً» سفر التكوين

---

(١) القرطبي ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن. جـ ١٢ ص ٩٧.

(٢) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدّى ـ ص ٩٩.

الإصحاح الثاني. وقد ردّ الله تعالى عليهم زعمهم هذا، فقال: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا السَّموات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾** [ق: ٣٨].

ووصفوا ربهم بالجهالة، وعدم العلم: «وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم، وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإلٰهُ آدمَ، وقالَ له: أين أنت؟!! فقال: سمعت صوتك في الجنّة، فخشيت لأني عريان، فاختبأت. فقال: مَنْ أعلمك أنّك عريان؟!! هل أكَلْتَ من الشجرة التي أوصيتك ألاّ تأكل منها؟!!» سفر التكوين الإصحاح الثالث. وقد ردّ الله عليهم زعمهم هذا، فقال: **﴿هُوَ اللّهُ الذي لا إِلَهَ إلاّ هُوَ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ هُوَ الرحمنُ الرحيم﴾** [الحشر: ٢٢].

ووصفوا ربهم أنه يحزن: «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض» سفر التكوين الإصحاح السادس.

ووصفوا ربهم أنه فقير، فقال تعالى: **﴿لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قولَ الذينَ قالُوا إنَّ اللّهَ فَقيرٌ وَنَحْنُ أغنياءُ سنَكْتُبُ ما قالوا وَقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقّ ونقولُ ذوقُوا عذابَ الحريقِ﴾** [آل عمران: ١٨١].

ووصفوا ربهم بأنه يتزوج، ويُرزق الأولاد. قال تعالى: **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرحمنُ وَلَداً﴾** [مريم: ٨٨].

وقد رد عليهم ربهم افتِراءاتهم هذه بقوله: **﴿ما اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ معَهُ مِنْ إلٰهٍ إذاً لذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بما خلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحانَ اللّهِ عمّا يَصِفُونَ﴾** [المؤمنون: ٩١].

وقال تعالى: **﴿كَبُرتْ كَلِمةً تَخرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ إنْ يَقُولُونَ إلاّ كَذِباً﴾** [الكهف: ٥].

إنّ علماء حضارة المادة الرأسمالية، والشيوعية، وهم لا يؤمنون بالله خالقهم، ومحييهم، ومميتهم يستحيل عليهم معرفة لغز الحياة، وما على العالم منهم ـ إن كانوا متواضعين ـ إلاّ أن يرفع عن وجهه قناع الإلحاد العلمي، ويعترف أن سِرّ الحياة لا يعلمه إلاّ خالق هذا السّر. يعترفون بقولهم عن المادة: إننا أعطيْنا المادة أهميـة غير عادية على حين تركنا العلوم الإنسانية، والروحية في مراحلها البدائية.

يقول الدكتور «الكسيس كيريل» الحائز على جائزة نوبل للعلوم: «إن مبادىء الثورة الفرنسية، وأفكار ماركس، ولينين لا تنطبق إلاّ على الإنسان العادي المثالي. ومن الواجب أن نعترف بصراحة تامة أن قوانين العلاقات الإنسانية لم تكشف بعد. أما الاجتماع، والاقتصاد، وما أشبههما، فهي علوم افتراضية محضة، وبدون أدلّة يمكن إثباتها»[1].

ولا شك أن علوم العلماء أضافت الشيء الكثير للإنسانية، ولكنها لم تدرك سِرّ الحياة. وبالتالي لم تساعد في حل أزمة العلم في ساحة العقائد، والمبادىء؛ لأنها تبقى علوماً إنسانيّة طبيعية بحتة، ولم تعط العلوم الروحية قسطها من البحث اللائق بها.

يقول الأستاذ «ج. و. ن. سوليفان»: «لا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أي عصر مضى؛ ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة؛ فنحن نواجه اليوم الإبهام، والمتناقضات في كل ناحية. إنها الكارثة المؤسفة التي نقف أمامها الآن؛ فبعد بحث طويل في العلوم المادية عن سِرّ الحياة فإنها تدلنا على أن إدراك سِرّ الحياة لن يتاح للإنسان»[2].

وكأنه يقول: إن أَحوالنا تحتم علينا معرفة أسرار الحياة حيث لا نستطيع مواصلة الحياة دون معرفتها؛ إن حياتنا مبعثرة لفقدانها هذه الحقيقة. إنهم يتمنّون في قلوبهم أن يدركوا سِرّ الحياة؛ ولكنهم وللأسف عندما اقتربوا من مصدرها خانتهم علومهم، وحشرتهم في دائرة المادة فقط، ولم تسمح لهم بالخروج منها إلى دائرة الروح، والنور؛ من أجل ذلك لم يؤمنوا، وظلّوا في طغيانهم يعمهون.

إن معرفة سِرّ الحياة ضرورية لحياتنا، ولا تتأتى هذه المعرفة إلاّ من خارج دائرة قوى الإنسان. لا بد أن تأتي بالوحي من خالق الحياة. وهنا تكمن أهمية علوم الروحانية المؤصلة في العقائد الدينية، والمبادىء الإلٰهية التي جاء بها الرسل من عند الله الخالق؛ والتي تتضمنها نصوص الكتب الإلٰهية السماوية، وأهمها القرآن الكريم. لقد تكلّم هذا الكتاب العظيم عن بدء حياة الكوْن فقال تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَ الذينَ كَفَرُوا أَنّ السَّمواتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُمَا وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ**

---

(١)(٢) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ٩٩.

كُلَّ شيءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وجاء النص القرآني بصيغة الاستفهام الإنكاري؛ توبيخاً لمن ادّعى أن مع الله آلهة؛ أو جحده، أو عبد الأصنام، أَوَلَم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السموات، والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقتيْن، ففصل الله بينهما، ورفع السماء إلى حيث هي، وأقر الأرض على ما هي؟!! قال الحسن البصري، وقال قتادة: «كانت السموات، والأرض ملتصقتيْن ففصل الله بينهما بالهواء»[1]. وقال ابن عباس: «كانت السموات رَتْقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات»[2].

وجعل سر الحياة بالماء، منه خلق الله الخلق، وبه تحيا المخلوقات، وبدونه تموت. أفلا يؤمن علماء الحضارة المادية بقدرة الله على الخالق؛ وأنه خالق الحياة، وآخذ بناصيتها؟!! فالكون بناء على تفسير هذه الآية كان منضماً، ومتماسكاً؛ لأنّ الرتق يعني انضمام الأجزاء، ثم بدأ يتمدد في الفضاء. هذه هي الفكرة العلميـة الجديدة عن الكون. فقد توصل العلماء في أبحاثهم عن حياة الكون، ومظاهره إلى أن المادة كانت جامدة، وساكنة في بداية الأمر، وكانت في صورة غاز ساخن، كثيف، رتقاً، متماسكاً، ثم حدث انفجار في هذه المادة قبل ٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ سنة على الأقل؛ فبدأت المادة تتمدد، وتتباعد أطرافها. ونتيجة لهذا أصبح تحرّك المادة أمراً حتمياً، ولا بد من استمراره طبقاً لقوانين الطبيعة التي تقول: إن قوة الجاذبية في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجياً بسبب تباعدها، ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة. ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت ١،٠٠٠ مليون سنة ضوئية في أول الأمر، وقد أصبحت هذه الدائرة الآن كما يقول البروفيسور «أيدنجتون» عشرة أمثال الدائرة الحقيقية؛ وهذه العملية من التوسع، والامتداد مستمرة دون توقف. وكما يقول البروفيسور «ايدنجتون»: «إن مثال النجوم، والمجرات كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط، وهو ينتفخ باستمرار. وهكذا تتباعد جميع الكُرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية في عملية التوسع الكوني»[3].

وتتوافق أحدث الكشوف العلميـة عن حياة الكون مع النصوص القرآنيّة إلى

---

(١)(٢) القرطبي ـ التفسير جـ ١١. ص ٢٨٣. وابن الجوْزي ـ تفسير زاد المسير جـ ٥ ص ٣٤٨.

(٣) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ١٢٧.

حـد بعيد. فنظرية تباعد القارات تتوافق مع النص القرآني: **﴿والأَرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحَاها، أَخْرَجَ منهَا مَاءَها ومَرْعَاها﴾** [النازعات: ٣٠ ـ ٣١]. ومغزى النظرية أن جميع القارات كانت في وقت من الأوقات رتقاً متصلة ببعضها، ثـم انشقت، وابتعدت عن بعضها، وفصل بينها الماء الذي شكل بحاراً، ومحيطات. وقد طرحت هذه النظرية عام ١٩١٥ م من قبل الجيولوجي الألماني «الفريد واجنر». وأيد قوله وجود دواب، وجبال، ونباتات متشابهة على هذه القارات؛ مما دفع بعالم النباتات البروفيسور «رونالدجود» إلى أن يقول في كتابه: «جغرافية نباتات الزهور» ما يلي: «لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة في مختلفة قارات العالَم إلاّ إذا سلّمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلة ببعضها البعض في وقت من الأوقات»(١).

وقد أصبحت هذه النظرية علميـة تماماً بعد تصديق الجاذبية الحجرية لها. إن العلماء اليوم بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة يستطيعون تحـديد موقع أي بلد وجدت فيه هضبة تلك الحجارة في الزمن القديم. وقد أكدت هذه الدراسة في الجاذبية الأرضية أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة في القديم بالأمكنة التي توجد فيها اليوم؛ وإنما كانت في ذلك المكان الذي تحـدده نظرية: تباعد القارات. وفي هذا الأمر يقول البروفيسور «بلاكيت» أستاذ الطبيعة في الكلية الملكية بلندن: «إن دراسة أحجار الهند تبيّن أنها كانت موجودة في جنوب خط الإستواء قبل سبعين مليون سنة. وتثبت دراسة جبال جنوب أفريقيا أن القارة الإفريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثماية مليون سنة»(٢).

لقد ورد في الآية القرآنيّة لفظ: «دحاها». أي من الدحو، ومعناه التسوية للشيء، ونشره كما يقال: دحا المطر الحصى عن وجه الأرض. وهذا هو نفس المفهوم الوارد في نظرية تباعد القارات.

وأمام هذا التوافق المدهش بين ما ذكره القرآن منذ أربعة عشر قرناً، وما اكتشفه العلم الحـديث عن سر حياة الكون، وتكوّن القارات يجب أن نخشع بقلوبنا، وحواسنا لمن أخبرنا بمثل هذه الحقائق، وهو خالقها، ومحييها، الله تعالى رب العالمين.

---

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى. ص ١٣٠.

(٢) مجلة ريدرز دايجست ـ عدد حزيران ـ يونيو سنة ١٩٦١م.

وقد تكلّم القرآن عن نهاية الكون أيضاً، فقال تعالى: **﴿يَوْمَ نَطْوي السَّماء كَطَيِّ السّجِلِ للكتبِ﴾** [الأنبياء: ١٠٤]. لقد تكلم العلماء الماديون: أنه طبقاً لقانون الأجرام السماوية سيقترِبُ القَمر من الأرض حتى ينشق من شدة الجاذبية، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء. وسوف يحدث انشقاق القمر بنفس القانون الذي يحكم المد، والجزر في البحار. فالقمر أقرب جيران الأرض، ولا يبعد عن الأرض سوى ٢٤٠،٠٠٠ ميل. وهذا القرب يؤثر على البحار مرتيْن يومياً، فيحدث المدّ، والجزر. ولو نقصت هذه المسافة بين الأرض والقمر إلى خمسين ألفاً من الأميال، فسوف يحدث طوفان شديد في البحار، وسوف تغطى معظم القارات، وسوف يغرق كل شيء حتى تتحطم الجبال من شدة تموّج البحار، وسوف تحدث شقوق كبيرة في الأرض بسبب قوة الجاذبية. ويرى علماء الفلك أن الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثناء عملية التكوين حتى وصلت إلى بُعدها الحالي عن القمر بناء على قانون الفلك. وهذا القانون هو نفسه الذي سيأتي بالقمر قريباً من الأرض مرة أخرى، ويحدث هذا قبل بليون سنة. وعندئذ سوف ينشق القمر، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء، وهذه الحقيقة العلميـة حول انشقاق القمر تتناسب مع قوله تعالى وحول اقتراب الساعة: **﴿اقترَبَتِ السّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ﴾** [القمر: ١].

وقد تكلّم القرآن عن بدء حياة الدّواب كلها بما فيها أرقاها وهو الإنسان، فقال تعالى: **﴿واللّهُ خَلَقَ كُلَّ دابّةٍ مِنْ ماءٍ فَمنْهُمْ مَنْ يمشي على بَطْنِه وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يمشي على أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللّهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [النور: ٤٥].

وقال تعالى: **﴿وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيٍّ أفلا يُؤمِنُونَ﴾** [الأنبياء: ٣٠].

وقد خص الله الإنسان أعقل المخلوقات بالذكر، فذكر أن بدء خلقه كان من ماء، ومن تراب، ومن طين ومن صلصال كالفخار، ومن حمإٍ مسنون. فعندما يخلط الماء بالتراب يصبح طيناً، وعندما يشوى الطين على النار يصبح صلصالاً أي يابساً كالفخار؛ وعندما يشوى أكثر يصبح حمأً أي طيناً أسود يابساً متغيراً لونه، ثم مسنوناً أي هيكلاً مجوفاً، وجسماً مخلقاً هو الإنسان.

فقد ذكر الله أنه بدأ خلق الإنسان من ماء، فقال تعالى: ﴿**خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ**﴾ [الطارق: ٦].

وذكر أنه بدأ خلق الإنسان من تراب، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩].

وذكر أنه بدأ خلق الإنسان من طين، فقال تعالى: ﴿**وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ مِنْ طِينٍ**﴾ [السجدة: ٧].

وذكر أنه خلقه من صلصال كالفخار، فقال تعالى: ﴿**خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخّارِ**﴾ [الرحمن: ١٤].

وأنه خلقه من حمإٍ مسنون، فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**﴾ [الحجر: ٢٦].

ثم ذكر الله تعالى مراحل خلق الإنسان، وأطوار حياته داخل الرحم، وخارجه:

أ ـ فبالنسبة لأطوار حياته داخل الرحم: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً في قرارٍ مكينٍ، ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا العِظامَ لَحماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخر فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالقينَ**﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]. واللام في قوله: «ولقد» جواب قسم وهو: والله، لقد خلقنا جنس الإنسان من سلالة استلت من طين. قال ابن عباس: هو آدم؛ لأنه انسل من طين.

وقوله: ﴿**ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً**﴾ أي جعلنا ذرية آدم، وبنيه مَنيًّا ينطف من أصلاب الرجال. والنطفة هي الماء. وقوله: ﴿**في قرارٍ مَكينٍ**﴾ أي رحم المرأة، وهو مستقر أمين للجنين. وقوله: ﴿**ثُمَّ خَلَقنا النطفَةَ عَلَقَةً**﴾ أي صيّرناها دماً جامداً كالدودة. وقوله: ﴿**فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً**﴾ أي صيّرناها قطعة لحم قدر ما يمضغ. وقوله: ﴿**فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظاماً**﴾ أي صيّرناها هيكلاً عظمياً صلباً لتكون عموداً للبدن. وقوله: ﴿**فَكَسَوْنا العِظَامَ لَحماً**﴾ **أي سترناه باللحم كالكسوة**. وقوله: ﴿**ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ**﴾ أي نفخنا فيه الروح فصار خلقاً آخر في أحسن تقويم. قال الفخر الرازي: «أي جعلناهُ خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً، وكان

جماداً؛ وناطقاً؛ وكان أبكما، وسميعاً؛ وكان أصمّا؛ وبصيراً؛ وكان أكمهاً؛ وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطره، وغرائب حكمه لا يحيط بها وصف الواصفين»[1].

ب ـ **وبالنسبة لأطوار حياة الإنسان خارج الرحم**: قال تعالى: **﴿ثُمَّ يُخرِجُكُمْ طِفلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لتكونوا شُيوخاً وَمِنكُمْ مَنْ يُتَوفَّى مِن قَبْلُ ولِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمىً وَلَعَلَّكُمْ تَعقِلُونَ﴾** [غافر: ٦٧]. قال الفخر الرازي: «رتب الله عمر الإنسان على ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشيخوخة. وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النماء، والنشؤ، وهو المسمى بالطفولة إلى أن يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد. ثم يبدأ بالتراجع، ويبدأ فيه الضعف، والنقص. وهذه مرتبة الشيخوخة»[2].

ثم أعقب هذه الآية قوله: **﴿هُوَ الذي يُحيـي وَيُميتُ فإذَا قَضى أَمْراً فَإنّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [غافر: ٦٨]. قال أبو السعود: «وهذا تمثيل لكمال قدرته، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك أمر، ومأمور»[3].

وبعد ذلك تكلّم القرآن عن موت كل حي مخلوق، فقال تعالى: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيها فَانٍ﴾** [الرحمن: ٢٦]. وقال: **﴿كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ﴾** [القصص: ٨٨].

وقال عن موت الإنسان: **﴿ثُمَّ إنكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾** [المؤمنون: ١٥].

وفي كل هذا فالله تعالى يتوّج حكم خلقه لمخلوقاته في إرجاعه الإحياء، والإماتة إلى نفسه، فقال تعالى: **﴿وَهُوَ الذي يُحيـي وَيُميتُ﴾** [المؤمنون: ٨٠].

إن الفلسفة المادية التي تستند إليها حضارة الكفر الرأسمالية، والشيوعية تعدت وهميـة خلق الكون بالصُّدفة، وفرضية خلق الخليّة لنفسها، وامتدت لتقرر عدم عودة الحياة بعد الموت؛ ومن ثم لا قيام للإنسان الميت ثانية من قبره. وأن

---

(١) الفخر الرازي ـ التفسير الكبير جـ ٢٣ ص ٨٥.
(٢) الفخر الرازي ـ التفسير الكبير جـ ٢٧. ص ٨٥.
(٣) أبو السعود ـ تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ ٥. ص ١٤.

آخرته هي دنياه؛ ومن أجل ذلك قالوا: لا حياة بعد الموت؛ وعلى الإنسان أن يشبع نهمه من حياته. يقول علماء المادة: لا حياة بعد الموت؛ لأن الحياة التي نعرفها لا توجد إلاّ في ظروف معينة من تركيب العناصر المادية؛ وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت؛ إذن لا حياة بعد الموت. ويعتقد «ت. ر. مايلز»: أن البعث بعد الموت ليس بحقيقه. وإن قضية أن الإنسان يبقى حيًّا بعد الموت قابلة لاختبار صحتها، أو بطلانها بالتجربة. وبناء على علم الأعصاب لا يمكن معرفة العالم الخارجي، والإتصال به إلاّ عندما يعمل الذهن الإنساني في حالته العادية. وأما بعد الموت، فهذا الإدراك مستحيل؛ نظراً لبعثرة تركيب النظام الذهني»[١].

ويعتقد «السير جميز»: «أن الشعور الإنساني هو وظيفة، وتفاعل، وتنسيق، وهو عبارة عن التفاعل، والرد العصبي لما يحدث من حركة، ونشاط في العالم الخارجي. وبناء على هذه الأفكار فلا مجال لحياة بعد الموت؛ نظراً لتحلل النظام الجسمي؛ ولأن الجهاز العصبي في الجسم لم يعد له وجود، وهو الذي كان يتفاعل، وينسق مع العالم الخارجي»[٢]. وبناء على تحليلاتهم المادية هذه تصبح قضية الحياة بعد الموت، بدون أساس عقلي، أو واقعي. ونحن بدورنا نجزم بحقيقة الحياة بعد الموت، واستناداً إلى تفسيراتهم حتى وتحليلاتهم، ونظرياتهم المادية عن الإنسان، وجسمه.

إن علماء المادة أنفسهم يؤكدون في نظرياتهم أن فناء الذرات المادية، والخلايا البشرية التي يتكون منها جسم الإنسان لا تقضي على الحياة ذاتها. وإن الجسم الإنساني يجدد حياته في كل لحظة، وبتغيير خلاياه، واستبدال الميت منها بخلايا حيّة. وأما هو يبقى كما هو جسماً له وجوده، وبقاؤه. وهو كالنّهر الجاري تتغير مياهه في كل لحظة حتى وقد يغيّر مجراه، ولكنه يبقى هو النهر. وعلماء المادة أنفسهم يقولون: إن خلايا جسم الإنسان تتجدد باستمرار في جميع مراحل حياته منذ الطفولة حتى الشيخوخة، وإن عملية التجدد كاملة تحصل كل عشر سنوات. فالجسم الإنساني باقٍ على قيد الحياة؛ وإن عملية الفناء المادي لجسمه في الظاهر لا تغيره في الداخل؛ ويستمر حيًّا في عاداته، وتقاليده، وعلومه،

---

(١)(٢) الإسلام يتحدى ـ ص ٧٦ ـ ٧٨.

وحركاته، ومساعيه، وأمانيه، وأفكاره. وهو بتجدّد جسمه، وخلايا جسمه يشعر دوْماً أنه هو الإنسان السابق. ولا يفنى بفناء خلاياه مما يؤكد أن الحياة الإنسانية هي غير الجسم، وهي شيء آخر، وبالتالي لا تموت مع موت الجسم، ومن ثم تبقى حيّة، ولا مانع أن تعود كما هي حيّة بعد موت الجسم. وهذا هو الأمر الذي دفع بعض علمائهم إلى القول: بأن الإنسان شيء مستقل بذاته، وباق غير متغيّر رغم التغيراتِ المتسلسلة، والمتابعة في خلايا جسمه. وقد وصفوا الإنسان بأنه الشخصية غير المتغيّرة في عالم المتغيّرات.

إن الملفت للنظر أن علماء المادة بتفسيراتهم للإنسان، وأنه غيْرُ جسمه، وأن حياته الإنسانية غير جسمه الميت يثبتون حقيقة الروح في عقيدة التوحيد الإسلامي، وأنها لا تموت مع موت الجسم، وأنها باقية بعد الموت، ولا تدفن مع جسم الميت في القبر، وأنها التي تنعم، وتعذب في حياة البرزخ، ولكن علماء الكفر وهم يثبتون حقيقة الروح هذه، إلاّ أنهم لا يؤمنون بها؛ لأنها: ﴿**قُلِ الروحُ مِنْ أمْرِ رَبّي**﴾. وبالنسبة لقضية الشعور الإنساني الفاني يبقى دوْماً غير الشخصية الإنسانية، إن الشعور الإنساني قد يفنى، ومن ثم يفنى بفنائه الجسم الإنساني المادي. نعم، هذا صحيح. ولكن علماء المادة أنفسهم يقررون أن هناك شيئاً آخر يحكم الإنسان لا يفنى، وهو «اللاشعور». وكما يسميه كبيرهم الذي علّمهم السحر العالم «فرويد»: «ما تحت الشعور». ويشكل الجانب الأكبر من الشخصية الإنسانية، واللاشعور لا يموت. وبالتالي فالإنسان لا يموت نهائياً. ويتمثل هذا اللاشعور في كل ما يختزنه الإنسان، وما ينويه، وما يخطر على باله من خير، وشر بحيث لا يؤثر فيه تغير الزمن، والهدم، وتقلب الأحداث، ومنها الموت. ولذلك تبقى هناك حياة إنسانية باقية، ولا تفنى، ولا تموت بموت الجسد الإنساني. وقد أثبت العلم حديثاً أن كل شيْء حدث، أو خلق في النور، أو الظلام، جامداً كان أم متحركاً تصدر منه حرارة بصفة دائمة تنتشر في كل مكان، وفي كل حال؛ وهذه الحرارة تعكس الأشياء، وأبعادها تماماً كالأصوات التي تكون انعكاساً كاملاً للموجات التي يحركها اللسان. وهذه الحرارة؛ وصور الأشكال، والكائنات، وأصواتها، وأفعالها تبقى حية باقية في الفضاء، ولا تفنى بفناء الأجسام المادية لتلك الأشكال، والكائنات. وقد تمكن العلماء من اختراع آلة تصوير دقيقة استطاعوا بها تصوير الموجات الحرارية الصادرة عن تلك

الأشكال، والكائنات، ولكن بعد صدورها مباشرة، وخلال وقت قصير من الزمن؛ وحصلوا على صور فوتوغرافية لها، والمشكلة الآن بالنسبة لهؤلاء العلماء تكمن في أنهم يريدون أن يخترعوا آلة تصوير تستطيع أن تلتقط، وتصوّر الموجات الحرارية التي صدرت عن الأشكال، والكائنات منذ وقت طويل. أي من عشرات السنين، ومئات، وآلاف السنين. فلو استطاعوا ذلك، لتمكنوا من الحصول على صور فوتوغرافية، لتلك الأشكال، والكائنات التي خلقت قديماً؛ وكذلك لتمكنوا من التقاط أصواتها، وأفعالها. وقد أطلق على هذه الآلة اسم: «آلة تصوير الحرارة». وبفضلها قد يتمكن الإنسان من مشاهدة ـ بالصوت، والصورة ـ تاريخ البشرية من على شاشات التلفزيون، والسينما، وكذلك الأفراد، والشعوب، والأمم السابقة وأفعالهم في سلمهم، وحربهم.

ولعل هذا ليس مستغرباً؛ لأن العلم الحديث اكتشف قريباً منه، وهو الراديو، والتلفزيون، حيث تلتقط هذه الأجهزة صور الكائنات، وأصواتها عندما تبثها، وترسلها أجهزة الإرسال في المحطات الإذاعية، والتلفزيونية في الحال؛ وتبقى المشكلة أن تلتقط هذه الصور؛ والأصوات بعد صدورها، وبثها بمدة أطول. وهذا كله يثبت أن للكائنات الحية، وعلى رأسها الإنسان شخصية حياتية أخرى غير الأجساد الفانية. وهم بتحليلاتهم العلميـة هذه يثبتون حقيقة وجود الروح، والتي تشكل الجانب الأكبر من الشخصية الإنسانية، والتي بالنسبة لعقيدتنا تبقى حيّة بعد فناء الجسم الإنساني، ولا تموت معه، وتنعّم أو تعذّب في القبر وفي حياة البرزخ. وبالتالي فإن علماء المادة يثبتون بأنفسهم، وعلومهم أن هناك حياة بعد الموت، ولكنهم، ولإصرارهم على إلحادهم ينكرونها حتى لا يوجدون وسيلة لهم، ولا لغيرهم توصلهم إلى الإيمان بالله، أو الإيمان بالآخرة. وحيث يصرّون أن مثل هذا الإيمان لا يوصلهم إلى السعادة الحقيقية التي ينشدونها، والتي يرونها في المادة، وفي كل ما يشبع النفس البشرية من مُتَع، وإشباع غرائز، ومن أكل، وشرب، وجنس، وسياحة، ورفاهية. وعلى حـد زَعمهم أن الإيمان بالإله، والآخرة يحرمهم من مثل هذه المتع، ولذلك يؤمنون بالإله في قرارة أنفسهم، وعرفوه بعلومهم، ولكنهم ينأون عنه، وينهَوْن عنه، فكانت آخرتهم دنياهم، ولا آخرة لهم.

يقول الأستاذ «وينوود ريد»: «إنه لأمر هام يدعونا إلى التفكير فيما إذا

كانت لنا علاقة شخصية مع الإله؟!! هل هناك عالم غير عالمنا هذا ؟!! وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم؟!! إن هذا السؤال ليس بعقدة فلسفية عظيمة فحسب، وإنما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية أيضاً. إنه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة؛ فحياتنا الراهنة قصيرة جداً، أفراحها عادية، موقوتة؛ إذ أننا عندما نظفر بما نحلم به، يفاجئنا الموت. ولو استطعنا الإهتداء إلى طريق خاص تجعل أفراحنا دائمة، وأبدية، فلن يرفض العمل به أحد غير المجانين منّا»[١].

يعترف هذا العالم المادي أن المادة، وعلومهم التكنولوجية، وإنجازاتهم المادية لم تجعل أفراحهم دائمة، ولم تحقق لهم سعادتهم المنشودة؛ فكانوا أقل راحة، وسعادة من الحيوان، وكما يقول عالم الرياضيات البريطاني «برتراند رسل»، وبالحرف الواحد: «إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور، والفرح على حين كان الناس أجدر من الحيوانات بهذه السعادة؛ ولكنهم محرومون منها، ومن نعمتها في عالمنا الحديث؛ ومن ثم أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة، وهي السعادة»[٢].

لقد بلغ القمة في علم الرّياضيات الحديثة، ولم يحقق له علمه السعادة، ولكن تراه ـ بإصراره على كفره ـ يناقض نفسه، ويذكر أنه وجدها. لقد سأله «فريمان» المعلق السياسي في الإذاعة البريطانية عام ١٩٥٩ م: هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات، والفلسفة يمكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الإنسان؟! فأجاب «رسل» قائلاً: «نعم، لقد وصلت في سن الأربعين إلى الطمأنينة التي قال عنها «أفلاطون»: إنه، يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات. إنها عالم، أبدي، حر لا يقاس بزمان. ولقد حظيت في هذا العالم بسكينة تشبه تلك التي يحصلون عليها في الدين»[٣].

أنظر كيف يضربون لك الأمثال في مجال التناقضات؛ ينكر هذا العالم الملحد إلٰهه المعبود، ويتنكر للروحانية، ويقدس المادة، ولم تسعده باعترافه بنفسه؛ ولم تؤيده فطرته الإيمانية في إلحاده؛ فهو يقول لجده عندما سأله: ما

---

(١)(٢) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدّى. ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٣) وحيد الدين خان ـ نفس المرجع. ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

تكون دعواتك المفضلة يا برتي؟!: «لقد سئمت الحياة، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبي ـ يا إلهي؟»[1].

كان يواظب على صلواته في الكنيسة في أيام شبابه، وعندما آتاه الله العلم، كفر به، وجحـده.

إنها شيم الكفار دوْما، ومنهم العلماء خاصة؛ عرفوا الله بالدليل العلمي، ثم أنكروه بغير دليل. إن مثله مَثَل «انجلز» منّظر الشيوعية الإلحادية؛ فقد كان في شبابه يصلّي، ويقرأ الإنجيل المقدس، وعندما آتاه الله العلم، والمال ـ وهو الذي كان ينفق على كارل ماركس ـ كفر بالله، وجحـده.

كتب «أنجلز» إلى صديق له: «إنني أدعو كل يوم، وأقضي اليوم كله داعياً أن تنكشف لي الحقيقة. لقد أصبح الدعاء هوايتي منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي. إنني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم. إن قلبي يفيض بالدموع الغزيرة، وأنا أكتب هذه السطور؛ قلبي يبكي؛ عيني تبكي؛ ولكنني أشعر أنني لست بطريد من رحمة الله. بل آمل أن أصل إلى الله الذي أتمنى رؤيته بكل قلبي، وروحي. وأقسم بحياتي أن عشقي، وبحثي هذا هو لمحة من روح القدس؛ ولن أقلع عن تفكيري هذا، ولو كذّبه الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة»[2].

أنظر إلى تناقض هذا العالم الملحـد، إنه يؤمن بفطرته بالإلٰه خالقه، ويلتجأ إليه في حياته، ومحنه، ويقول: «إنني لست بطريد من رحمة الله» ثم ينكره، ويجحـده.

وإن عبّاد البقر أمثال السياسي «جواهرلال نهرو» «والد أنديرا غاندي» رئيس وزراء الهند ثانية أكبر الدول تعداداً في السكان يعبد الصنم إلٰهه «رام»، ويسجد للبقر، ويقدس النار من دون الله ثم تجبره فطرته الإيمانية أن يعترف بأن معبوداته هذه ليست الٰهه الذي يجب أن يعبده، ويسجد له، فتراه يقول سنة ١٩٦٤ م في جمع من المستشرقين: «إنني سياسي، لا أجد وقتاً للتفكير، والتمعّن؛ ولكنني أضطر أحياناً أن أسأل: ما حقيقة هذه الدنيا؟! ومن نحن؟! وما هذا الذي نعمله،

---

(١) وحيد الدين خان ـ نفس المرجع. ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٢) وحيد الدين خان ـ نفس المرجع. ص ١٥٤.

ونقوم به؟!! إنني على يقين كامل أن هناك قوى تصوغ أقدارنا»[1].

لقد أثبت علماء حضارة المادة الرأسمالية، والشيوعية، والوثنية أن هناك حياة بعد الموت، وأن هناك آخرة، وإن فطرتهم الخلقية توحى لهم بذلك، ولم يستطيعوا ـ وقد حاولوا ذلك ـ أن يسخروا انجازاتهم العلميـة، والتكنولوجية للقضاء على نظرية الحياة بعد الموت، وقد فشلوا في ذلك. إن حقيقة وجود الإله موجودة في كل قطرة من قطرات دمائهم، وفي كل خلية من خلايا أجسادهم، وهم يشعرون ذلك علماً، وفطرة؛ من أجل ذلك يجب أن يكونوا مطيعين لهذا الاله خالقهم ولكن!! إن الحياة الإنسانية لا معنى لها بدون الإيمان بالإله خالقها، ولا سعادة، ولا راحة نفسية فيها إن لم يُعبد ربها، خالقها. إن فهم الحياة الإنسانية يتعلق قبل كل شيء بفهم الإنسان نفسه، ودراسة نفسيته، ومعرفة ما يسعدها، وما يشقيها، ومن ثم الإلمام بالتكوين النفسي لهذا الذي يسمى الإنسان. لقد أثبتت البحوث النفسية التي قام بها علماء المادة أن جميع أفكار الإنسان، أي جميع خلايا مخّه تبقى حيّة بصفة دائمة، ولا تموت مع موت الجسد؛ وهذا يدل على أن عقل الإنسان ليس جزءاً من جسمه الفاني. إن البحوث النفسية تلك أثبتت أن الوجود الإنساني لا تنحصر حقيقته في ذلك الجسم المادي الذي تتغيّر خلاياه، وأنسجته في كل لحظة، والذي يخضع دوْماً لعمليات الاحتكاك، والتحطم، والفناء. إن الوجود الإنساني شيء آخر لا يفنى بفناء الجسد، ولا يزول بزواله. وكما أثبتت بحوثهم النفسية أن هناك شيئاً اسمه اللاشعور، وهو الذي يعبر به عن الوجود أو عن ذلك النوع من الوجود الإنساني الذي لا يفنى، ولا يزول، ولا يموت. وأن هذا اللاشعور، لا تحكمه القوانين الزمنيّة التي تحكم الجسد الفاني في الدنيا، وبالتالي فإن ما يتناوله اللاشعور من أقوال، وأفعال لا تخضع للقوانين الزمنية؛ وإنما تبقى حيّة بعد موت الجسد المادي لتمارس حياة أخرى في الآخرة، وتوضع في موازين الحسابات خيرة كانت أم شريرة. وكما يقول فرويد نفسه «إن اللاشعور، والحياة العقلية الأخرى لا يطرأ عليها الموت بل يأتي على الجسد الفاني». وبالتالي يبقى اللاشعور، يبقى الإنسان الحقيقي حيًّا، ويمارس حياة أخرى بعد الموت. وبناء عليه نستطيع القول: إن هناك حياة إنسانيّة أخرى بعد الموت، وإن هناك عالماً آخر خارج أجسامنا المادية لا يفنى بفنائها، ولا يموت

(١) جريدة هيرالد ناشيونال ـ عدد ٤. عام ١٩٦٤ م.

بموتها. إن الفكر، وإن التفكير أعمال العقل الإنساني. والتي يعبر عنها «فرويد» باللاشعور هي عالم آخر غير عالم الجسد الفاني، وها هي الرؤى في النوم، يراها النائم، ويسمع أقوالاً، ويفعل أفعالا، وجسده نائم شبه ميت لاحراك فيه، فيكون الإنسان في حالة النوم شخصية أخرى ملؤها الحركة، والنشاط، تكون هناك حياة إنسانية، والجسد لا يزال يغط في نومه، ومماته. إن علم الحياة الإنسانيّة، وفي بقائها، وفنائها يتعلق بعلم النفس؛ لكونه مسألة نفسية بحته؛ ولذلك يجب أن تبحث من خلال علم النفس، وليس الجسد؛ لأن الجزء الذي هو محل بحث، وهو حياة الروح الباقية لا توجد تماما في هذا الجسد الفاني، وعلاقتها به أنها تعطيه الحياة، والقدرة على الحركة. نعم، هناك روح، هناك حياة مستمرة بعد موت الجسد المادي؛ وهذه حقيقة يسلّم بها علماء المادة أنفسهم، وفي قرارة أنفسهم يعترفون بأنّ الحياة بعد الموت حقيقة من المتعذر إنكارها، وتجاوزها. إن البروفسور «دوكاس» لا يؤمن بحقيقة الحياة بعد الموت كعقيدة دينية، ولكنه اضطر أن يؤمن بحقيقة حياة الآخرة مجردة عن الدين نتيجة دراساته المستفيضة حول الجوانب الفلسفية، والنفسية للإنسان؛ فتراه يقول بالحرف الواحد في آخر الباب السابع عشر من كتابه: «فلسفة الدين»: «لقد قرر رهط من أذكى علمائنا أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة بقاء الروح نظرية معقولة، وممكنة الحدوث، ومن هؤلاء: الفريد راسل واليس، ووليام كروكس، و «ف. و. هـ. مايرز»، و «سيزار لومبرازو»، و «كميل فلاماريون»، و «السير أوليفرلوج»، والدكتور «ريتشارد هوجسن»، والمستر «هنري سيدويك»، والبروفسور «هيسلوب»[1].

ويقطع الدكتور «دوكاس» بوجود الحياة بعد الموت من الناحية العلمية؛ ومع ذلك ينكرها دينيًا حتى ـ وإصراراً منه ـ لا يؤمن بربه، خالقه، فتراه يقول بالحرف الواحد: «يتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت ـ التي يؤمن بها الكثيرون منّا كعقيدة دينية ـ ليس من الممكن أن تكون واقعاً فحسب، وإنما لعلها الوحيدة من عقائد الدين التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي. ولو صح هذا، فمن الممكن أيضاً أن نجد معلومات قطعية في هذا الموضوع؛ وبغض النظر عن الأفكار التي افتراها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت، ولن نحتاج حينئذ إلى الإيمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية»[2]. إن الدكتور «دوكاس»، وهو

(١)(٢) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدّى. ص ٩٥.

يصل إلى هذا الحد من الوضوح فيما يتعلق بحقيقة الحياة بعد الموت، ثم يجحدها دينياً، فإن مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً؛ لم تنفعه علومه، ولم تحقق له السعادة في الدنيا، والآخرة. فهو في إثباته لوجود الآخرة علمياً، وإنكاره لها روحيًا سيكون ذلك حجة عليه في كفره، ودليلاً شافياً على عدم إيمانه بالله خالق الحياة بعد الممات، فيكون يوم الآخرة بالنسبة له، وللكافرين يوماً عسيراً. كان الأحرى بمثل هذا العالم أن يستفيد من علمه، ويستعد ليوم آخرته، ليوم حسابه؛ وهو يثبت وجود، وحقيقة هذا اليوم، وفي نفس اللحظة ينكره. وبعبارة أخرى: فقد اكتشف طريق النجاة، ولكنه لم يسلكه؛ فهو كالذي أشرف على الغرق في الماء ثم أدركته سفينة النجاة، ولكنه بدلاً من أن يركبها، غرّه علمه، وقدرته على السباحة، فأصرّ عليها، فغرق، فمات. ألا لا رحمة على الكافر.

إن علوم الكفّار المادية لم تحقق لهم الطمأنينة، وبالتالي لم تحقق لهم السعادة. ولذلك تجد رعايا حضارات، ومجتمعات الكفر من: يهود، ونصارى، ووثنيين، وعلمانيين، ووجوديين، وبوذيين، وشيوعيين، ورأسماليين تجدهم محرومين من مظاهر الطمأنينة، والأمن النفسيّيْن، ويعانون في كل لحظة من لحظات حياتهم من أزمات نفسية، ومشاكل اجتماعية لا حصر لها. إن علومهم وإن مدنيتهم، وإن حضارتهم المادية كانت وبالاً عليهم؛ لأنها لم تُؤدِّ بهم إلى الإيمان بخالقهم؛ وهم يعلمون، أو لا يعلمون أن عقيدة الروح، وليس عقيدة المادة هي المصدر الأساسي لكل سعادة منشودة سواء في الدنيا، أو في الآخرة. وإن عقيدة الإيمان التوحيدية بالله هي المانحة الوحيدة للهدوء، والطمأنينة، والأمن النفسي لمعتنقيها حتى ولو كانوا متخلفين علمياً. إنها القوة المحركة لكل فضيلة إنسانية، ولكنها لا تخضع للتجارب في المعامل. وكما يقول السير «وليام أوسلر»: «إن العقيدة الإيمانية قوة محركة عظيمة لا توزن بأي ميزان، ولا يمكن اخضاعها للتجربة في المعامل»[1].

وليعلم أنصار الحضارات المادية أن إلحادهم لا يحقق لهم السعادة، ولا يقودهم إلى فضائل الأخلاق، وطمأنينة النفوس، ولا ينشر القيم الفاضلة، والخير في المجتمعات. فهذه نفحات إلٰهية، ولا يمنحها إلاّ الإلٰه، وإذا أردنا، وأرادوا

---

(١) وحيد الدين خان ـ نفس المرجع. ص ١٦١.

أن نحصل عليها، علينا أن نقوي علاقتنا بالله خالقنا. وكما يقول الأستاذ «كريسي موريسون» رئيس أكاديميـة نيويورك سابقاً: «إنّ الاحتشام، والاحترام، والسخاء، وعظمة الأخلاق، والقيم الفاضلة، والمشاعر الساميـة؛ وكل ما يمكن اعتباره نفحات إلهية لا يمكن الحصول عليها بطريق الإلحاد، لأنه نوع من الأنانية حيث يجلس الإنسان على كرسي الإلٰه. وسوف تنتهي الحضارة بدون العقيدة. ويتحول النظام إلى فوضى. وسوف ينعدم التوازن، وضبط النفس، وسوف يعم الشرّ في كل مكان. إنّنا بحاجة ملحة أن نقوي علاقتنا، وصلتنا بالله خالقنا»[1]. ولكنهم يعملون عكس ما يقولون. إن العلم قد يستطيع معالجة معظم الأمراض العضوية، وتغذية الجوانب المادية في الجسم البشري المادي، إلاّ أنه يعجز عن معالجة الأمراض النفسية، والمعنوية، والخُلُقية، والروحية. وكذلك يعجز العلم عن تغذية الشعور، والأماني، والتطلعات إلى السعادة الحقيقية، فيبقى الإنسان بدونها جسداً ممتلىء القامة يجري، ويتحرك، ويصنع، ويتنقل، ويزرع، ولكنه في نفس الوقت تجده يعاني من أزمات نفسية عنيفة، ومشاكل حياتية يصعب حلها.

إن الحياة أصبحت مملّة، وغير مرغوب فيها رغم التقدم المادي، والتكنولوجي الهائل؛ لأن الإنسان في مجتمعات الكفر محروم من عقيدة الإيمان بالله . إن التناقض بين المادة، والروح تنغص على الكفار حياتهم؛ وهم، وقد أقاموا المصانع، وغزوا الفضاء، وبنوا المستشفيات اعتقدوا جازمين أنهم أصبحوا بالنسبة للسعادة قاب قوسين أو أدنى. لقد كذبوا على أنفسهم، وعلى أتباعهم عندما أقنعوهم أن تحقيق السعادة لا يتم إلاّ بالحرمان من عقيدة الإيمان بالله، ولا يتحقق إلاّ بتصنيع الدواء، وإجراء العمليات الجراحية للأجسام؛ وبدلاً من أن يهبوا أجسامهم هذه صحة البدن، فقد لطخوها بأمراض لم يجدوا لها علاجاً، وعلى رأسها الأمراض النفسية، والعصبية. وكما يقول أحـد علمائهم النفسانيين، وهو «يانغ»: «إنّ كثيراً من المرضى النفسانيين من الأمم المتحضرة لم يكن سبب مرضهم إلاّ الحرمان من العقيدة الدينية. وإن مرضهم لم يكن إلاّ لأنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر. ولا يشقى أحـد من هؤلاء المرضى إلا إذا استرجع عقيدته الدينية»[2].

(١)(٢) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدّى. ص ١٦٣.

إن حضارات الكفر المادية، وهي تصنّع المصانع، تحطم الفضائل؛ وهي تخترع التكنولوجيا، تنشر الفساد؛ وهي تغزو الفضاء، تشيع الفوضى في الأرض؛ وهي تقيم المشروعات تهدم أرواح الناس؛ وهي تبني العمارات الشاهقة، تنشر الحرمان؛ وهي تبني المستشفيات، تقتل الناس؛ وهي تقيم المدن الكبرى، تنشر الجوع، وهي تصلح الأرض، تنشر الفقر؛ وهي تخترع الدواء، تقتل الأبرياء؛ وهي تسَيّر الطائرات، تنقل الأمراض؛ وهي تبني المصحات، تنشر السيدا، والأيدز؛ وهي تصنع السلاح، تعدم البشر؛ وهي تبني وسائل المواصلات، تستعبد الأمم؛ وهي تبني المدارس، والجامعات تنشر الجرائم؛ وهي تبني الكنائس، والأديرة، تنشر الرذائل؛ وهي تبني مراكز الترفيه، تحارب الأخلاق، وهم وقد تقدموا مدنياً، قست قلوبهم، وتخلفوا حضارياً؛ ألا ساء ما يعملون.

إنّ مقولة: الله أنت ربّي، وأنا عبدك منقوشة في القلوب، وتسري في الخلايا. وإن فطرة الإيمان المخلوقة في النفوس تحفز الإنسان، كل إنسان، حتى ولو كان كافراً أن يبحث عن «الله أنت ربي»، وأن يستسلم لعقيدة: الله خالقي، وأنا عبده، وذلك من خلال الإيمان به، وتوحيده، والركوع له، والسجود له، والدعاء له، والالتجاء إليه، وذكره؛ وبهذا كله، تطمئن القلوب. قال تعالى: **﴿الّذينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بذِكْرِ اللّهِ ألاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾** [الرعد: ٢٨]. وعندما تطمئن القلوب، تسعد، وبعكس ذلك تشقى.

نقولها دَوْماً: إن الرفاهية المادية لا تحقق السعادة، وإن العقيدة الرأسمالية لا توفر الطمأنينة، وإن العقيدة الشيوعية، لا تحقق الأمن النفسي للنّفوس، وإن التنكر للإله الخالق لا يجلب الهدى. وإن الإعراض عن الآخرة لا يجلب النجاة. نقولها ثانية، وثالثة، وإلى ما لا نهاية: إن هناك حياة بعد الموت؛ إن هناك آخرة لا تخضع للتجارب في المعامل، والمختبرات. وإن يوم التغابن آتٍ لا محالة، وعندها يفرح المؤمنون، ولا تنفع الكافرين شفاعة الشافعين. وعندها يحاسب كل إنسان على أقواله، وأفعاله: **﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاّ لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتيدٌ﴾** [ق: ١٨]. ويوم القيامة تنشر الصحائف، وتخرج الكتب، والتي دوّنت، وسجلت الملائكة فيها كل ما اقترفه الإنسان، وما قدمه في حياته الدنيا ليحاسب نفسه بنفسه: **﴿وَنُخرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتاباً يَلْقَاهُ مَنْشوراً، إقرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾** [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

لقد اتخذ كفار المادة من حياتهم الدنيوية آخرة لهم؛ فعاشوها تماماً، ولم يعملوا شيئاً لآخرتهم. إن الله تعالى لم يُسَمّ الدنيا حياة، وإنما سمّى الآخرة الحياة، فقال: **﴿يقولُ يا ليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتي﴾** [الفجر: ٢٤]. يقولها الله تعالى على لسان الكافر الذي لم يقدم لها، أي لحياته الآخرة شيئاً؛ والذي غرّته حياته الدنيا، واستبدلها بحياة الآخرة. والله تعالى وصفها ـ أي الدنيا ـ بأنها حياة لهو، ولعب، ومتاع فانٍ، فقال عنها: **﴿وَمَا هذِهِ الحَياةُ الدُّنيا إلاّ لهوٌ وَلَعِبٌ﴾** [العنكبوت: ٦٤]. وقال عنها: **﴿وَمَا الحياةُ الدُّنيا إلاّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَللدَّارُ الآخرةُ خَيْرٌ للذِينَ يَتَّقونَ﴾** [الأنعام: ٣٢]. وقال عنها أيضاً: **﴿وَمَا الحياةُ الدُّنيا في الآخِرةِ إلاّ مَتَاعٌ﴾** [الرعد: ٢٦].

لقد جعل أنصار حضارة المادة حياتهم الدّنيا دار قرار، وهم يموتون فيها كل لحظة، ولكن ما الحيلة معهم عندما يضعون مقولة ملك فرنسا لويس الخامس عشر شعاراً لحياتهم وهي: «أعيش حياتي الدنيا كما أشاء، وليكن بعدها، وبعد مماتي الطوفان».

إن مؤمن آل فرعون قالها للكفار قديماً، ويقولها لهم حديثاً: **﴿يا قَوْمِ إنّما هذهِ الحياةُ الدُّنيا مَتاعٌ وَإنَّ الآخِرَةَ هيَ دارُ القَرارِ﴾** [غافر: ٣٩].

إن أنصار حضارات المادة ليسوا عقلاء؛ فالعاقل لا يستبدل الخالد بالفاني؛ ولا يستبدل آخرته بدنياه، ولا يستبدل جنته بناره. حتى ولو بلغ عنان السماء في المادة، والدراهم، والأموال، والأولاد، والنساء؛ فكل هذا متاع الحياة الدنيا، وكله زائل، وفانٍ، ومن كانت هذه صفاته فلا قيمة له. ولذلك نستشعر في قلوبنا ما قاله حبيبنا المصطفى «صلوات الله عليه وسلامه» في هذا المقام: «الكيّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لما بَعْدَ الموْتِ، والعاجز من أتبعَ نَفْسَه هواهُ، وتمنَّى على الله» رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم. لقد سلك أتباع حضارة المادة غير طرق النجاة، وهم يعلمون أن السّفينة لا تجري على اليبس. لقد شكلت فطرة الإيمان بالله «عقدة أوديب» في نفوس علماء حضارة المادة؛ هذه العقدة التي وردت في أسطورة يونانية قديمة تقول: إن أوديب قتل أباه الملك، وتزوجّ زوجته، وهي أمّه، وهو لا يدري. وعندما كبر أوديب، وعلم بالأمر تكوّنت لديْه عقدة نفسية ندماً على ما فعل، وانتهى به الأمرُ إلى الانتحار، هو، وأمّه.

والغريب أن ينقل عالم النفس «فرويد» عقدة أوديب هذه، وينعتها للطفل الذي بلغ الخامسة من عمره، ولم يتعلق بأبيه، وبقي معلقاً بأمه؛ وبقيت معه هذه العقدة، ولم يستطع التخلص منها طيلة حياته؛ فبقي يتعذب نفسياً.

ولا ندري، لماذا لا تشكل عقيدة الإلحاد عقدة أوديب يندمون عليها طيلة حياتهم؟!! ولماذا لا يحاولون حل هذه العقدة بالرجوع إلى ربهم، والإيمان به؟!!

لقد تجاوزوا في عُقَدِهِمْ غير الإيمانية عُقْدَة أوديب؛ لأنهم قتلوا فطرة إيمانهم بربهم قتلاً؛ وأغلقوا قلوبهم عنها غلقاً؛ وأقفلوا عقولهم عن كل إيمان بالله خالقهم؛ وصرفوا أنفسهم عن كل ما يوصلهم إلى ربهم، واستخدموا إنجازاتهم العلمية في كل ما يبعدهم عن ربهم؛ فعقّدوا حياتهم، وعايشوا عُقَدَهُمْ الإيمانية، والنفسية، ولكن بشكل أعظم جُرماً من جريمة عقدة أوديب، اللهم ارحمنا، واصرف عنا عقد المعقدين في كل لحظة، وفي كل ساعة، وفي كل يوم ترى علماء، وأتباع المادة يركعون أمام أوثانهم، ويسجدون لأصنامهم، ويعبدون معبوداتهم، ولا عجب في ذلك لأن من لم يؤمن بالله خالقه ـ والإيمان به ضرورة فطرية ـ أتبع فطرته الإيمانية بالركوع، والسجود لغيره، حتى ولو كان صنماً لا يعقل. والأعجب من ذلك أن يكتشف علماء حضارات المادة الرأسمالية، والشيوعية سنن الله في الحياة، ثم يستبعدونه عنها، ويستثنون شرائعَهُ عن حكمها، ويمنعون أنظمته من معالجة شؤنها، ويحولون دون تطبيق قوانينه على مشاكلها.

وبدلاً من ذلك فقد امتدت جريمتهم لتفصل الدين الإلهي عن الحياة، وتجعل من الإنسان الأناني الحكم، الفصل في أمور الحياة، وإلى درجة أن قدّس علماء حضارة المادة عقل هذا الإنسان، وجعلوا منه مرجعاً أساسياً للتشريع، وخوّلوه صلاحية سن القوانين التي تحكم الحياة، ومنحوه سلطة وضع الأنظمة، وضبط اللوائح التنظيمية، وتسيير الأمور، والشؤون الحياتية: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والعلمية، والثقافية.

وبعبارة متواضعة فإن علماء حضارة المادة ـ وفي استبعادهم لله، وقوانينه عن شؤون الحياة ـ يجعلون العقل البشري كل شيء في الحياة، ويُخوّلونه سلطة سن القوانين، ووضع التشريعات، وترتيب الأنظمة، وضبط اللوائح لجميع الشؤون

الحياتية، وبالتالي يعطون هذا العقل سلطة التحكم بالحياة، والمخلوقات، وسلطة الحكم المطلق على أقوال، وأفعال، وتصرفات، وأفكار الأفراد. وقد بررت حضارات المادة الشركية، والإلحادية إساءتها إلى الله، ورفضها لأنظمته وشرائعه وقوانينه لأنها غير صالحة لمعالجة مشاكل هذا العصر بعد أن تعقدت العلائق الحياتية فيه، وتشعبت نتيجة تقدم المخترعات، والصناعات التكنولوجية، والعلمية. وبدلاً منها ابتدع أنصار تلك الحضارات قوانين، وأنظمة، ولوائح تضبط الحياة بجميع جوانبها. وفي نفس الوقت روّج علماء هذه الحضارات لها بمفاهيم برّاقة، وجذّابة ملؤها الزيف، والزيغ والضلال كتحقيق الديمقراطية، والعدالة، والحرية، والمساواة، وحقوق الإنسان، وحكم الشعب للشعب، وسيادة الأمة، والأمة مصدر السلطات، وغيرها من مفاهيم الدّجل، وشعارات الضحك على الأذقان. إن استبعاد علماء حضارات المادة لقوانين الله، وتشريعاته عن حكم الحياة، وتخويل العقل البشري المحدود سلطة سن قوانين الحياة، وتشريعاتها يجافي كل منطق علمي، وفكري؛ ويتناقض مع كل واقع نظري، وعملي؛ وذلك لثلاثة أسباب رئيسة هي[1]: السبب الأول: عجز العقل البشري عن الحكم على الأشياء، والأفعال. السبب الثاني: خضوع العقل البشري للأهواء العاطفية، والميول الفطرية. والسبب الثالث: عدم قدرة العقل البشري على صياغة دستور عادل للحياة.

السبب الأول:

عجز العقل البشري عن الحكم على الأشياء، والأفعال. وذلك من حيث الحكم عليها بالمدح، أو الذم في الدنيا، وترتيب الثواب، والعقاب عليها في الآخرة. إن جعل العقل مصدر سن القوانين، والحكم على الأشياء بالإباحة، والترك، والمدح، والذم أمر يستحيل وجوده عملياً في الحياة. وبعبارة أخرى فإن العقل الآدمي ـ وهو يصدر التشريعات، ويسن القوانين ـ لا يستطيع البتّة أن يحكم على الأشياء التي يأمر بها أنها حسنة وعلى الأشياء التي ينهى عنها أنها مذمومة؛ وذلك لأن العقل البشري غير قادر على تصوّر حُسنِ الحسنِ؛ وقُبْحِ القبيح؛ أو حُسْنِ المنافع، وقُبْحِ الأضرار؛ أو حُسْن الإيمان؛ وقُبْح الكفر؛ أو حُسْنِ الصدق؛ وقُبْحِ الكذب؛ أو

(١) ينظر بالتفصيل في مثل هذه الأسباب. دكتور غازي عناية ـ جاهلية الديمقراطية ـ الباب الثالث.

حُسْنِ القصاص، وقُبحِ الثأر؛ أو حُسْنِ الزواج، وقُبح الزنى؛ أو حُسْنِ الحلال؛ وقُبحِ الحرام من المأكولات، والمشروبات، والمعاملات؛ أو حُسْنِ العدل؛ وقُبحِ الظلم، وغيرها من الأمور غير المحسوسة التي تخرج عن قدرة العقل في الحكم عليها أو سلطته في إصدار قوانين بشأنها، وبتحليلها، أو تحريمها. وإنما يبقى الحكم على مثل هذه الأمور غير المحسوسة لله تعالى خالقها، وليس للعقل المخلوق مثلها. وكما يقول القاضي ابن العربي: إنه لا حكم للعقل[1] فلا يجوز أن يشرّع لأمور الحياة، أو أن يسنّ قوانين لضبطها.

فالعدل مثلاً: كونه يمدح غير محسوس؛ لإن الإنسان لا يحسه، ولو أنه يميل إليه. ولكن هذا المْيل لا يكفي حتى يحكم عليه العقل، ويصدر قانوناً بتحليله.

وكذلك الظلم: فكونه يذم غير محسوس؛ لإن الإنسان لا يحسه، ولو أنه ينفر منه. ولكن هذا الميل لا يكفي حتى يحكم عليه العقل ويصدر قانونا بتحريمه.

وتبعاً لهذا: فإن العقل البشري لا يستطيع البتة أن يصدر أحكاماً على الأفعال والأشياء بالحسن، والقبح؛ أي بالمدح، والذم؛ لأن كونها حسنة أو قبيحة ممدوحة، أو مذمومة أمر غير محسوس. وبالتالي لا يستطيع العقل أن يصدر حكماً، ويسن قوانين بالأمر بها، أو النهي عنها، أو أن يشرع لها. وإنما العلم، والمنطق، والعقل تقتضي أن يترك الحكم عليها إلى خالقها، وبإصدار قوانين، وأوامر بتحليلها أو تحريمها؛ لأنه هو وحده القادر على تصوّر الحسن، وحسن الحسن، وقبح القبيح، وبالتالي له وحده سلطة سن القوانين، ووضع التشريعات للحياة الإنسانية ومعالجة مشاكلها. فبالقوانين الإلهية تنتظم شؤون الحياة، وبقوانين البشر تفسد.

أما بالنسبة للمحسوسات: فيمكن للعقل أن يحكمها، وأن ينظمها، وأن يشرع لها لأنها مما يحسه، ويدركه هذا العقل. وهي غالباً تتعلق بالأمور التي تتصف بالكمال، والنقص: كالقول: «العلم حسن، والجهل قبح،» أو تتعلق بالطبع، فتكون ملائمة، أو منافرة له. كالقول: «إنقاذ الغرقى حسن، وأخذ

---

(١) القاضي ابن العربي ـ تفسير أحكام القرآن. جـ ١ ص ١٤.

الأموال ظلماً قبيح» فمثل هذه الأمور المحسوسة، والتي يعقلها، ويدركها العقل يمكن له أن يشرع ويسن القوانين لها. وهذا كله على خلاف غير المحسوسات كما قلنا فيبقى تنظيمها خارجاً عن قدرة العقل، ويبقى الله خالقها هو القادر على تنظيمها، وسن القوانين لها. يقول الإمام الآمدي: «الحاكم بالحسن، والقبح على ما حكم بكوْنه حسناً، أو قبيحاً إمّا العقل، أو الشرع لا محالة»[1].

وكما يقول الإمام الشوكاني: «لا خلاف في كون الحاكم هو الشرع بعد البعثة، وبلوغ الدعوة»[2].

وكما يقول الإمام الإسنوي: «لا يتصور أن يقوم تحسين، أو تقبيح إلاّ بالشرع»[3].

وكما يقول أيضاً: «إن الحاكم حقيقة هو الشرع»[4].

إن الحكم على الأشياء، والأفعال من حيث كونها حسنة، أو قبيحه هو للشرع لا للعقل؛ لأن القضية قضية إيجاب. وتحريم؛ وافعل، ولا تفعل؛ حلال، أو حرام؛ وتبقى من قبيل الفرضية، أو الندب، أو الكراهية، أو الإباحة؛ ومن قبيل تنفيذ القانون، أو عدم تنفيذه؛ ومن قبيل تطبيق التشريع، أو عدم تطبيقه؛ وغيرها من القضايا الحياتية التي تتعلق بها مصالح الناس؛ فيستحيل أن يكون الحكم عليها؛ أو التشريع لها من صلاحيات العقل الآدمي. ولا معنى لقوله تعالى: **﴿إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾** [الأنعام: ٥٧]. إلاّ إذا كان الله هو الحاكم؛ لأن السيادة في الحكم، وسن القوانين الحياتية هي أصلا لله. وعندما يكون الحكم لله، يكون التشريع له؛ وعندما يكون التشريع لله، وجب الأخذ به، والتصديق به عندما يخبرنا به، ويبلغنا إياه، وعندها نكون مسئولين مسئولية كاملة إن لم نأخذ بالقوانين الالهية، ونستبدلها بالقوانين البشرية. قال تعالى: **﴿وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبعثَ رَسُولاً﴾** [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: **﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكونَ لِلنَّاسِ عَلى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حكيماً﴾** [النساء: ١٦٥].

---

(١) الآمدي ـ غاية المرام في علم الكلام. ص ٢٣٤.

(٢) الشوكاني ـ إرشاد الفحول. ص ٨.

(٣)(٤) الإسنوي ـ نهاية السؤال شرح منهاج الوصول على علم الأصول. جـ ١ ص ١١٥.

وبناء على ما سبق يمكننا القول: بأن ما استندت إليه حضارات الكفر المادية، وعلى رأسها الرأسمالية، والشيوعية في جعل العقل الآدمي هو مرجع التشريع للشؤون الحياتية باطل بطلاناً مطلقاً. وبالنسبة لنا كمسلمين: فإن ما تصدره عقول نواب الأمة من قوانين، وتشريعات تخالف أحكام الدين لا يُؤخذ بها، ولا يُلزم الناس بتطبيقها؛ لأنها لا توافق الإسلام، وتوافق قوانين مجتمعات الكفر اليهودية، والنصرانية. ومن ثم فإن تحكيم قوانين العقل البشري لشؤون الحياة بدلاً من القوانين الإلهية مرفوض تماماً في الإسلام؛ وما الحكم الذي يستند إلى القوانين البشرية إلاّ حكم جاهلية، وهذا مرفوض بالنسبة لنا كمسلمين. قال تعالى: **﴿أَفَحُكْمَ الجاهِلِيّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ منَ اللهِ حكْماً لِقَومٍ يوقِنُونَ﴾** [المائدة: ٥٠].

السبب الثاني:

خضوع العقل البشري للأهواء العاطفية، والميول الفطرية. ممّا يجعله عاجزاً عن معالجة شؤون الحياة بشكل راتب وسليم. فالعقل الآدمي مخلوق، وناقص، ومحدود، وتحكمه الأهواء، والغرائز، والميول الفطرية؛ ويبقى دوْماً متأثراً بإيحاءات ميوله، وغرائزه، وشهواته؛ مما يجعله عاجزاً عن سن قوانين، ووضع تشريعات صالحة لحياة الناس؛ وعاجزاً كذلك عن إصدار أحكام صحيحه، وسليمة، وناجعة لمشاكل الأفراد الحياتية. إن العقل الآدمي، وبتأثير من تلك الأهواء، والغرائز، والميول قد يصدر قوانين تبيح أموراً مذمومة تعافها النفس البشرية بالفطرة. وهذا ما فعلته عقول ممثلي نواب الأمة في برلمانات مجتمعات حضارات الكفر في أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية، واليابان حيث أصدرت، وما تزال تصدر، وتشرع، وتسن قوانين تبيح المذموم من الأقوال، والأفعال، والأشياء، والمعاملات مثل: قوانين تحليل العلاقات الجنسية المحرمة، والزنى، واللواط، والشذوذ الجنسي، والسحاق، وشرب الخمر، وأكل الحشرات: كالضفادع، والجنادب، والعناكب، والحلزونات، والخنافس. وقوانين استغلال الناس، وأكل أموالهم بالباطل: كالربا، واليانصيب، والميسر، والقمار، وقوانين المتاجرة بأعراض النساء: كتحليل فتح بيوت الدعارة، وغيرها من القوانين التي جعلت ديمقراطيات حضارات المادة وَبالاً على الأمم، والشعوب. إن تحكيم العقل،

وتخويله سلطة إصدار قوانين الحياة يعني في حدّ ذاته تحكيماً للأهواء، والغرائز، والميول، والشهوات التي تحكم هذا العقل، وتؤثر في أعماله، وحكمه على الأمور؛ ويعني في حدّ ذاته اتخاذها مقياساً للأمور تزان، وتقاس به من حيث حسنها، أو قبحها؛ ومن حيث مدحها، أو ذمها. ويعني هذا أن الحسن، والممدوح، وأن القبيح، والمذموم هو الذي تقدره، وتحكم عليه هذه الأهواء، والميول، والغرائز، والشهوات، والعواطف. من أجل ذلك اختلطت الأمور في مجتمعات الكفر المادية؛ وأصبح من الصعب التفريق بين الصالح من الأمور، والطالح. وأصبحت الأخلاق الفاسدة صالحة، والصالحة فاسدة، والعادات الحسنة سيئة، والسيئة حسنة. واختلطت أمور الناس في جميع أحوال حياتهم المعيشية من: عبادات، ومعاملات، وعلاقات، ومطعومات، ومشروبات، وعادات، وتقاليد، وإلى درجة أن ضاق الناس بحياتهم رغم التقدم المادي، والعلمي، والتكنولوجي الذي حققته حضارات رأس مال، والإلحاد. من أجل ذلك يجب أن يكون حكم الحياة، وتنظيمها للخالق القادر على سن القوانين، ووضع التشريعات الصحيحة، والمنظمة لها، والقادر على حل مشاكل الناس، وحياتهم.

السبب الثالث

عدم قدرة العقل البشري على صياغة دستور عادل للحياة: وذلك نتيجة عجز الإنسان الآدمي صاحب هذا العقل عن الاهتداء إلى أسس متينة، وصحيحة يقام عليها صرح التشريع، ولبنة القوانين الصالحة، والعادلة، والدائمة، والقادرة على حل مشاكل الحياة كلها. إن الإنسان مهما اجتهد يبقى عاجزاً عن تأصيل مصادر عادلة، وثابتة لدستور مثالي يحكم حياة الأفراد في المجتمعات. وبعبارة متواضعه إنه عاجز عن الكشف عن دستور حياته. وبإقرار علماء، وفلاسفة حضارات المادة أنفسهم فإنّ جميع الدساتير الموجودة إلى الآن تفقد الأسس العلميـة، والمنطقية التي تجيز بقاءها. وكما يقول الاستاذ «فولر»: «إن القانون لم يكشف عن نفسه بعد»[١] وقد ألّف كتاباً يحمل هذا المعنى، وسمّاه: «القانون يبحث عن نفسه» إن المقوّمات، والمبادىء، والأسس الصحيحة لأي دستور للحياة، أو يحكم الحياة

---

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدّى. ص ١٣٥ ـ ١٣٧.

أمر خارج عن قدرة الإنسان نفسه، ومهما أوتي من رجاحة عقل، أو علم؛ وذلك لأن رجل القانون مخلوق، وتقديره للقيم، والأسس الصحيحة محدود، ونسبي، ويختلف ذلك باختلاف رجال القانون الذين يعدون بالآلاف، وعشرات الآلاف. ولسبب ذلك لم يكن في وسع هؤلاء صياغة الدستور المثالي في قيمه، ومقوماته، وأهدافه، ومثالياته. ويقول الاستاذ «فريدمان» بالنسبة لهذه النتيجة: «إنها لحقيقة؛ إن الحضارة الغربية لم تجد حلاً لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر، من نهاية إلى أخرى»[1].

وقد حاول بعض علماء القانون أمثال: «جون أستين» أن يجعلوا رِضَا الشعوب المحكومة أساساً صالحاً لبناء الدستور المثالي؛ وبذلك فإن الدستور الذي لا يحرز رضا الجماهير لا يجب الاعتداد به. وهم في هذا يستبدلون الماء بالماء. فإن الرضا لا يعني القدرة؛ وإن الرضا لا يعني الصلاح دوْما في التشريع. وكما يقول «كوهلير»: «ليس هناك دستور أبدي، وأي تشريع يصلح لعصر ما ليس بالضرورة أن يكون صالحاً لجميع العصور. وقد يكون هناك دستور صالح لطائفة من الناس، وفي نفس الوقت يكون مهلكاً لطائفة أخرى»[2].

وقد حاول بعضهم أن يجعل من العدل أساساً صالحا لبناء الدستور المثالي كما هو الحال بالنسْبة «لراسكو باوند». فقد كتب اللورد «رايت» معلقاً على فكرة العدل هذه: إن «راسكو باوند» يدعو إلى فكرة اطمأننت إلى صدقها بعد جميع تجاربي، ودراساتي في القانون، وهي أن المقوّم الأساسي للتشريع هو العدل»[3]. ولو سلّمنا بهذه المقولة، يبقى السؤال مطروحاً وهو: ما هو العدل المقصود؟!! وكيف يمكن تحديده، وتعيينه؟!! وما هي معايير العدالة بالنسْبة للعدل عند المنادين به؟!! وما هي موازين القيم التي يجب أن توزن بها مظاهر العدل؟!! لقد فشلت فلسفة المادة أن تجيب على مثل هذه الاسئلة؛ لأن مثل هذه الأسس، والقيم، والمقومات التي هي ضرورية لإقامة صرح التشريع الدستوري، والقانوني الأبدي، والصالح، والمثالي لحياة الإنسان تخرج عن مقدور العقل البشري. وبالتالي عن قدرة الجماهير البشرية. وفي وضع لوائح تضبط تصرفاتها، ومعاملاتها، وبشكل جيد في حياتها. إنه الإله وحده، القادر على وضع دستور

---

(١)(٢)(٣) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدّى. ص ١٣٥ ـ ١٣٧.

عادل، ومثالي للحياة، وإلى قيام الساعة. وذلك من خلال تشريعاته، وقوانينه المؤصلة في دينه الذي أنزله على الرسل كافة. هذه الحقيقة التي وصل إليها فلاسفة حضارات المادة، ومنهم: البروفسور «جورج وهتكروس باتون» حيث نراه يقول: «والحقيقة أنه ليس هنالك من أساس لشيء من النظم، والتشريعات إلاّ للدّين. ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة، ووجدان، ولا يمكن قبولها على أساس استدلال منطقي»[١].

ونراه يقول أيضاً: «لقد استخرج أصحاب نظرية القانون الطبيعي القديمة أسس تشريعاتهم من الحقائق الإلهامية في الدين»[٢].

وبالنسبة لفشل هؤلاء الفلاسفة في تحديد معايير القيم التشريعية، ومنها العدالة يقول «باتون» نفسه: «إن جميع محاولات الفلاسفة للبحث عن الأهداف، والقيم في التشريع قد انتهت إلى غير ما نتيجة»[٣]. وبالنسبة لحقيقة العلاقة بين الدين، وأسس التشريع يقول «باتون»: «لا يوجد مثال في القوانين ومن الصين إلى بيرو إلاّ وكان ذا علاقة بالطقوس الدينيّة، والعبادات منذ بداية أمره»[٤].

لقد آن الأوان ليعترف علماء حضارات المادة أنه لا غنى عن الإله، ولا غنى عن دينه لوضع مقومات، وأسس سليمة، وصالحة لبناء دستور مثالي يحكم حياة الناس، وينشر العدل في مجتمعاتهم. يعترف بهذا الدكتور «فريدمان» فيقول: «يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنه لا بد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقي للعدل. والأساس الذي يحمله الدين لإعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به في حقيقته»[٥]. نعم، وببساطة متناهية نقول: إن الدين الالهي هو المصدر الحقيقي، والصحيح لكل تشريع، أو قانون يراد صياغته لحل مشاكل الحياة. وإن التشريع الإلهي هو المنبع الأصيل لكل قانون أصيل، والقانون الأصيل هو العادل؛ لأن الأصالة القانونية إنما تعني العدالة؛ وإن العدالة في الحياة لا تتحقق إلاّ بسيادة التشريع الإلهي؛ والاحتكام إلى شرع الله، وليس إلى شرع البشر؛ وليس إلى شرع ديمقراطيات حضارات المادة الرأسمالية، والشيوعية. إن كلمة العدل وردت في القرآن الكريم ثمانِ وعشرين مرة، فعلاً، ومصدراً؛ وتكرر مرادفها لفظ «القسط» خمساً وعشرين مرة. في حين وردت كلمة الظلم ـ وهو

---

(١)(٢)(٣)(٤)(٥) ـ وحيد الدين خان ـ نفس المرجع. ص ١٣٨.

منهي عنه ـ بمفرادته في مائتيْن وثمان وثمانين آية. قال تعالى في العدل: **﴿إنَّ اللَّهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ والبَغْيِ يَعُظِكُم لَعَلكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [النَحل: ٩٠].

يقول القرطبي عن ابن مسعود: «هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب. والفحشاء كل ما تَناهى قبحه: كالزنى، والشرك. والمنكر: كل ما تنكره الفطرة. والبغي هو الظلم، وتجاوز الحق، وتجاوز العدل»[١].

ويروي الحافظ ابن كثير في تفسيره: «إن أكثم بن صيفي لما بلغه خبر الرسول «ﷺ» انتدب رجليْنْ فأتياه، فقالا: من أنت؟! وما أنت؟! فقال: أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله. ثم تلا عليهما هذه الآية: **﴿إنّ اللّهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحْسانِ﴾** فرجعا إلى أكثم بن صيْفي؛ فلمّا قرَءَا عليه الآية، قال: «إني أراه يأمر بمكارم الأخلاقِ، وينهى عن مساوئها؛ فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا فيه أذناباً»[٢] رواه البخاري. لقد أمر الله بالعدل في القوْل، فقال: **﴿وَإِذَا قُلتُمْ فَاْعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذَا قُرْبى وَبعَهْدِ اللّهِ أوْفُوا ذَلكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لعَلّكُمْ تَذَكّرونَ﴾** [الأنعام: ١٥٢].

وقد أمَرَنا الله تعالى أن نعدل حتى ولو ضد أنفسنا بعيداً عن التعصب للذاتِ، أو الهوى. فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ على أَنَفسِكُمْ أو الوالدينِ والأَقْرَبينَ إنْ يَكُنْ غَنيًا أو فَقيراً فاللّهُ أَوْلَى بِهِما فَلا تتَبِعوُا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإنْ تَلْوُوا أَو تُعْرِضُوا فإنَّ اللّهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾** [النساء: ١٣٥].

وقد أمرنا الله تعالى أن نعدل في علاقتنا الشخصية كالزواج، والطلاق، فقال: **﴿وَإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أو مَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾** [النساء: ٣].

فقد أمرنا الله تعالى أن نعدل حتى في علاقاتنا مع أعدائنا، فقال: **﴿وَلا يَجرمَنّكُمْ شَنَآنُ قَوْم على أَلا تَعْدِلُوا إعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتّقوى وَاتّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ خَبيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾** [المائدة: ٨].

---

(١) القرطبي ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن. جـ ١٠ ص ١٦٥.

(٢) ابن كثير ـ محمد علي الصابوني ـ مختصر ابن كثير جـ ٢. ص ٣٤٤.

وقد توجَ الله تعالى أوامره العدلية في وجوب العدل في حكم الناس وحياتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [النساء: ٥٨].

قال ابن كثير في تفسيره: «قال محمد بن كعب، وزيْد بن أسلم، وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء؛ يعني الحكّام بين الناس»[١].

وقال ابن تيمية: «إنها نزلت في ولاة الأمور. وهو قول العلماء»[٢].

وقد كرّست الأحاديث النبوية العديدة مظاهر العدل، ووجوبه، ومنها: قوله «ﷺ» في ما يرويه عن ربه في الحديث القدسي: «إنيّ حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً؛ فلا تظالموا»[٣] رواه مسلم.

قال ابن تيمية في هذا الحديث: «وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظالموا» تجمع الدين كله. فإن ما نهى الله عنه راجع إلى الظلم؛ وكل ما أمر به راجع إلى العدل»[٤]. والحديث رواه مسلم.

وقوله «ﷺ»: «ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة»[٥].

وقوله «ﷺ»: «إنّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[٦].

وقد ركزت السّنّة النبوية على إقامة العدل حتى مع الكفار الذميين. فقال «ﷺ»: «مَنْ آذى ذميّاً، فأنا خصمه»[٧]. وقال أيضاً: «إلاّ من ظلم معاهداً، أو أنقصه حقّه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة»[٨].

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم. جـ ١ ص ٥١٦.

(٢) ابن تيمية ـ السياسة الشرعية. ص ٤.

(٣)(٤) ابن تيمية. الفتاوى الكبرى. جـ ١ ص ٤١٤.

(٥) الغزالي ـ إحياء علوم الدين جـ ١ ص ١٧٣. قال الحافظ العراقي: أخرجه البزّاني من حديث ابن عباس بإسناد حسن.

(٦) رواه الشيخان، والترمذي. التاج جـ ٤. ص ١٤٨.

(٧)(٨) ـ رواهما العجلوني ـ كشف الخفاء. جـ ٢ ص ٢١٨.

وقد امتدت شواهد العدالة في السّنّة النبوية لتتناول الحكام، والولاة. فقال (ﷺ): «ما من عبد يسترعيه الله رعيّة، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته إلاّ حرّم الله عليه الجنة»[1]. وقال أيضاً: «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم، وينصح إلاّ لم يدخل معهم الجنة»[2]. وقال أيضاً: «مَنْ ولي مِن أمر أمّة محمد شيئاً، فولّى رجلاً وهو يجد مَنْ هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله، ورسوله»[3] رواه البخاري، ومسلم. وفي الأثر عن ابن مسعود: «عدل ساعة في الحكومة خير من عبادة سبعين سنة» وسنة العدل في الحياة جاءت بها أيضاً قوانين الصحابة «رضوان الله عليهم»، وولاة المسلمين من بعدهم إلاّ ما ندر من بعضهم. وقد ذكر العباس بن عبد المطلب أركان العدل في كلمته للفاروق عمر فقال: «أربع من عمل بهن، استوجب العدل: الأمانة في المال، والتسوية في القسم، والوفاء بالعدة، والخروج من العيوب. نظّف أهلك. ونفسك»[4].

إن العدل الحقيقي هو عدل الحضارة الاسلامية؛ لأنه عدل الله، ومن أعدل من الله حكماً، وأحسن بياناً، وأصدق قانوناً: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾** [المائدة: ٥٠]. وقد نعتت النصوص الالهية حكم حضارات الكفر المادية بالجاهلية، فقال تعالى: **﴿أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾** [المائدة: ٥٠]. إن العدل عدل الله لا عدل الرأسمالية؛ وإنّ الخير خير الله، لا خير الشيوعية؛ وإن الهدى هدى الله لا هدى العلمانية؛ وإن الصواب هو صواب القوانين الإلهية لا قوانين الأغلبية، والديمقراطية. بقوانين الله تستقيم حياة البشر، وبقوانين حضارات المادة تعوّج، وتفسد. وهذا ثابت في واقع الحال.

لقد آن الأوان أن يعترف علماء حضارات المادة الرأسمالية، والشيوعية، والبوذية. إن الهدى هو هدى الله، وهو دستوره المثالي، المعيار الحقيقي للعدل، والذي يتضمنه دوْماً دينه السماوي الذي أنزله الله على رسله، وأنبيائه، وخاتمهم الرسول محمد بن عبد الله «صلوات الله عليهم وسلم». وكما يعترف أحد علمائهم، وهو الدكتور «فريدمان» حيث يقول: «يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنه لا بد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقي للعدل. والأساس الذي

---

(١)(٢) رواهما مسلم. صحيح مسلم. جـ ٦ ص ٩. ورواهما النووي ـ رياض الصالحين. ص ٢٩١.

(٣) ابن تيمية ـ السياسة الشرعية. ص ٥.

(٤) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك. جـ ٤. ص ٦٤.

يحمله الدين لإعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به في حقيقته، وبساطته»[1].

إننا نجد في دين الإله الصحيح جميع الأسس، والمقومات السليمة لبناء صرح التشريع القانوني الصالح لحكم الحياة. إن دعوة الله لهم، ولنا لتطبيق قوانينه السماوية فيها الحياة الفاضلة لنا، ولهم، وللبشرية قاطبة. قال تعالى: **﴿يَا أيُّها الذين آمَنُوا اسْتجيبُوا لِلّهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحيِيكُمْ﴾** [الأنفال: ٢٤]. يقول السّدّي: «ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر»[2]. ويقول قتاده: «هو القرآن، فيه الحياة، والثقة، والنجاة، والعصمة في الدنيا، والآخرة»[3].

إن علماء حضارات المادة الكفرية ـ وهم يؤمنون بقوانينهم العقلية، ويكفرون بقوانين الإله السماوية ـ مثلهم كما أورده القرآن الكريم: **﴿مَثَلُ الذينَ كفروا بِرَبّهِمْ أَعمالُهُمْ كَرَمادٍ اشتَدّتْ بِهِ الرّيحُ في يوم عاصفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا على شَيْءٍ ذلك هُوَ الضلالُ البعيدُ﴾** [إبراهيم: ١٨].

وإنّ علماء المادة هؤلاء، وهم يخضعون الحياة الدنْيا لحكم قوانينهم، ويعتقدون أنهم حققوا مآربهم، وسعادتهم، فهؤلاء في الحقيقة لا يعلمون من الدنيا إلاّ بعض مصالحها الفانية، والتي لا تغنيهم شيئاً في آخرتهم التي نفوها، وجعلوها حياتهم الدنيا. ويصدق فيهم قول ربهم: **﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً من الحياة الدُّنيا وَهُمْ عنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾** [الروم: ٧].

قال ابن عباس: «يعلمون أمر معايشهم متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرسون، وكيف يبنون»[4] وقال الفخر الرازي: «ومعنى الآية أن علمهم منحصر في الدنيا، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي، وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذها، وملاعبها؛ ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها، ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها؛ وهم عن الآخرة غافلون»[5].

وقوله «ظَاهِراً» إشارة إلى أنهم عرفوا القشور، ولم يعرفوا اللباب؛ فكأنهم

---

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدّى. ص ١٣٨.

(٢) ابن كثير ـ تفسير القرآن. جـ ٢. ص ٢٩٧.

(٣) الطبري ـ تفسير جامع البيان ـ جـ ١٣ ص ٤٦٨.

(٤) القرطبي ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن جـ ١٤ ص ٧.

(٥) الفخر الرازي ـ التفسير الكبير. جـ ٢٥. ص ٩٧.

في علومهم أشبه بعلوم البهائم؛ وبمثل هذه القشور في العلوم لا تتحقق السعادة.

إنّ علماء حضارات المادة تراهم يتخبّطون، وترى العالِمَ منهم كالذي يتخبطه الشيطان من المّس، والجنون، وهم يحاولون هيكلة دستور قانوني مثالي يحكم حياتهم. ومثل هؤلاء كمثل الذي يزن مجموعة من الضفادع بمجموعة أخرى مماثلة؛ فكلّما وضع مجموعة في كفّة، وجد أن ضفادع كفة الميزان الأخرى قد قفزت إلى الماء مرة أخرى. إنهم بكفرهم، ومادياتهم الحضارية تراهم يتبنّون قيماً حضارية لا أخلاقية هي أقرب للرذائل منها إلى الفضائل. فملأوا الأرض بقوانينهم جوراً، وظلماً، وفحشاً، وقتلاً، وزناً، ولواطاً، وشذوذاً جنسياً، واستعباداً، واستغلالاً، وفقراً، وحرماناً، وجوعاً، وفساداً. ومن أجل تسويق مثل هذه القيم اللاحضارية، اللاأخلاقية تراهم يستخدمون شعارات الزيف، والزيغ البرّاقة، ورايات الخداع، والضلال الجذّابة كمفاهيم: المساعدات الإنسانيّة، وحقوق الإنسان، والحرية، والعدالة، والمساواة، والوطنية، وتطوير الاقتصاديات، وتثقيف الشعوب. وقد وصل بهم الأمر إلى ابتداع عقائد كفرية، ومبادىء شركية ليحاربوا بها عقيدة التوحيد الإلهية، ومنها: عقائد العلمانية، والوجودية، والبهائية، والقاديانيّة؛ وبحيث أنهم أباحوا كل منكر عقدي، وكل فحش مبدأي، مبررين ذلك بالحريّة الديمقراطية. لقد غالوا في تقديس المادة، وباعدوا بها بين عقائد الروح الأخروية، وبين عقائد الحياة الدنيوية، مستخدمين شعارات، ومفاهيم الباطل الكفري؛ لترويج أفكارهم المادية الإلحادية في جميع مجالات الحياة: كالديمقراطية بالنسبة لمجال السياسة، وفصل الدين عن الدولة بالنسبة لمجال الحكم. وحرية الفكر بالنسبة للمجال العقدي. وحقوق الإنسان بالنسبة للمجال الاجتماعي. وتكوين شركات الكارتل، والتروست الكبرى بالنسبة للمجال الاقتصادي. وإنشاء البنوك الربوية بالنسْبة للمجال التعاملي. وإقامة صناديق النقد الدولية بالنسْبة للمجال النقدي. وإقامة البورصات العالمية بالنسْبة للمجال المالي. وفتح بيوت الدعارة، وتحليل الزنى، واللواط، والشذوذ الجنسي بالنسبة للمجال الصحي. وإحياء حفلات الرقص، والغناء الماجن، وشرب الخمر، والمخدرات بالنسْبة للمجال الترفيهي. وإقامة معارض الأزياء، ومسابقات ملكات الجمال بالنسْبة للمجال الترويحي. وتشجيع العُري، والفن السابع، وهو رقص الباليه بالنسْبة للمجال الفني. وإقامة الألعاب الرياضية القاتلة: كالملاكمة،

والمصارعة بالنسبة للمجال الرياضي. وإقامة مباريات كرة القدم العالمية بالنسْبة للمجال التكويني الجسماني. أَنْ يُعدَمَ موسوليني، وعشيقته في إحدى الميادين الكبرى في روما سنة ١٩٤٥ م هو عمل جليلٌ في عُرْف علماء المادة؛ وهما يستحقان الموت ما دام أنهما فشلا في سياسة الحرب. بينما يَسمح عُرْف هؤلاء أن يُكرّم، ويُبجّلَ علماؤهم الذين فشلوا في سياسة التعامل مع الله. إنه التناقض بعيْنه، والذي لا نجد في قواميس العقلانية، والمنطقية أي حل له. إنهم وهم يتنكرون للإله خالقهم، ويعتنقون مفاهيم خاطئة عن ربهم، وعلاقته بمخلوقاته: الإنسان، والكون، والحياة إنهم غير متحضرين؛ ولا يجوز أن نعترف لهم أنهم أصحاب حضارة فكرية، وعقدية متقدمة. إن حضاراتهم المادية. الرأسمالية، والشيوعية، والبوذية تبقى متخلفة حضارياً، متقدمة مدنياً؛ إنهم أصحاب حضارة مادية. ولا تسمو حضاراتهم، ولا ترتقي إلاّ بالرجوع إلى الإله خالقهم. والإيمان به، وبملائكته، وكتبه ورسله، ومنهم خاتمهم محمد بن عبد الله «صلوات الله عليه وسلامه» والذي كما ورد في الحديث القدسي «يا محمد، لو سلكوا كل طريق، واستفتحوا كل باب ما قبلت منهم إلاّ أن يؤمنوا بك».

إن الحضارة الاسلامية ذات المفاهيم الصحيحة عن الله، والإنسان، والكون، والحياة تبقى هي المتقدمة، والأجدر أن تسمى، ويطلق عليها لفظ الحضارة؛ لأنها حضارة عقدية، فكرية صحيحة، وإن انتابتها فترات ضعف علمي، مدني، ويبقى علماؤها الفكريون الموحدون مميّزين عن نظرائهم الماديين، وشعار علماء المسلمين في هذا المقام قوله تعالى: **﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أبغي ربًا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ولاَ تكْسِبُ كلُّ نَفْسٍ إلاّ عَلَيْها ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ثُمَّ إلى رَبكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بما كنتُمْ فيهِ تختلفُونَ﴾** [الأنعام: ١٦٤].

وأمام تخلّف الحضارات المادية عقائدياً، وفكرياً لا يسعنا إلاّ أن نصرخ قائلين، والقول لله: **﴿إِنَّ السّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها ولكنَّ أَكْثرَ الناسِ لا يُؤمنونَ﴾** [غافر: ٥٩].

إن حضارات المادة الرأسمالية، والشيوعية، والبوذية بلغت ذروة التقدم المدني، والصناعي، والتكنولوجي، ومع ذلك لم تحقق لمجتمعاتها السعادة المنشودة، والمبتغاة؛ كل ذلك لأن علماء هذه الحضارات المادية استبعدوا الروح

عن الحياة، وغلّبوا المادة على الروح؛ فأحلوا أقوامهم دار البوار، والهلاك، والخسران، ومن ثم فقد رجع بعض هؤلاء العلماء الماديين، واعترفوا بقيمة الروح، وقدرة القيم الروحية، والأخلاقية على تحقيق مؤشرات السعادة الحياتية فهذا «أندريه مالرو» يعترف بضرورة التوازن بين الجوانب المادية، والروحية، فتراه يقول، وبالحرف الواحد: «لا بد من أن تتوازن الجوانب المادية، والروحية في الحضارة، وعلى الإنسان ألاّ يكتفي من الناحية الروحية بالانتصارات التكنولوجية، أو بالقواعد الأخلاقية القائمة على المنفعة، أو الشهوة التي يصنعها العقل»[١]

وهذا العالم الفرنسي «الكسيس كاريل» يعترف أن حضارتهم المادية لم تحقق السعادة لهم، وعلى العكس فقد جلبت لهم القلق، والهموم؛ فتراه يقول؛ وبالحرف الواحد: «إنّ الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لا يلائمنا؛ وإن القلق، والهموم التي نعاني منها تتولد عن النظم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية؛ وسوف يدرك الاقتصاديون أن بني الإنسان يفكرون، ويشعرون، ويتألّمون. ومن ثم يجب أن تقدم لهم أشياء أخرى غير الطعام، والفراغ. إن لهم واجبات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية....»[٢].

وهذا «ويل ديورانت» يعترف أن الحضارة الغربية في تقديسها للمادة، ونكرانها للروح، والدين جلبت لهم الحيرة، وجعلتهم يتخبطون في متاهات الضياع؛ فتراه يقول، وبالحرف الواحد: «لقد أصبحنا أغنياء في التكنولوجيا إلاّ أننا فقراء في الهدف ـ الروح. ويكفي أنّ الحضارة الغربية هي من صنع، وعمل الناس للناس؛ وأنّها تنكرت للدين، فكان ما كان من الحيرة، والتخبّط، والضياع»[٣].

وهذا السياسي «جون فوستر دالاس» وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في العقد الخامس من هذا القرن يعترف في كتابه: «حرب أم سلام» بفشل الحضارة الغربية المادية في تحقيق الأمن، والطمأنينة؛ بسبب إفلاسها الروحي. فتراه يقول، وبالحرف الواحد: «نستطيع أن نتحدث ببلاغة عن التقدم المادي الذي حققناه، وعن عدد السيارات، وأجهزة الراديو، والتلفزيون التي

---

(١)(٢)(٣) ـ أنور الجندي ـ الإسلام والحضارة العربية ص ٧٢ ـ وعلي محمود عبد الحليم. الإسلام والحضارة بحث مقدم الندوة العالمية للشباب المسلم. ص ٧ ـ ٨. وص ٤٩١. وص ٥٧٠. وص ١٨٨.

يمتلكها الأفراد؛ ولكننا قد أفلسنا من الناحية الروحية. وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها، وهناك حيرة في عقول الناس، وتآكل لأرواحهم»[١].

ولنا التنويه الجازم في هذا المقام بالقول: بأن الحضارة غير المدنيّة. فالحضارة تعني المفاهيم العقدية والمبدأية عن الله الخالق، وعلاقته بمخلوقاته: الإنسان، والكون، والحياة، وبها يتحقق الرُّقِيّ. وأما المدنيّة فهي تعني التقدم المادي، والانجاز العلمي، والتكنولوجي، والصناعي، والعمراني. وإن الحضارات المادية الرأسمالية، والشيوعية، والبوذية في تصوراتها، ومفاهيمها السيئة عن الله جعلتها حضارات متخلفة عقائدياً، ولو أنها متقدمة مدنيّاً. فبالمدنية فقط لا يتحقق الرقي، ولا السعادة. وتبقى الحضارة الإسلامية هي المتقدمة عقائدياً، وهي الكفيلة بتحقيق السعادة للبشرية قاطبة، وهي، وبمفاهيمها، وتصوراتها السليمة، والصحيحة عن الله، والإنسان، والكوْن، والحياة تبقى الحضارة الوحيدة التي لا غنى للبشرية عنها لتحقيق سعادتها الحقيقية في حياتها، وآخرتها. وأمام هذا الموقف الحضاري لا يسعنا إلاّ أن نختم قولنا بسيد الدعاء: «اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت، خلقتني وَأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذُ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت» رواه البخاري.

وأمام هذا الموقف المدني لا يسعنا إلاّ أن نختم دراستنا هذه بقولنا: إن حضارتيْ المادة الرأسمالية، والشيوعية أساءتا إلى الله من خلال تصوراتهما العقدية والفكرية الخاطئة له؛ ومن خلال نظرتهما الخاطئة وغير العقلانية لعلاقة الله الخالق بالإنسان، والكون، والحياة المخلوقة. والله المستعان على ما يصفون.

---

(١) ـ أنور الجندي ـ الإسلام والحضارة العربية ص ٧٢ ـ وعلي محمود عبد الحليم. الإسلام والحضارة بحث مقدم الندوة العالمية للشباب المسلم. ص ٧ ـ ٨. وص ٤٩١. وص ٥٧٠. وص

ثبت الأحاديث النبوية الشريفة

الرقم المتسلسل

١ ـ «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع؛ حتى لو دخلوا جحر ضب لا تبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود، والنصارى؟!! قال: فمن» رواه مسلم.

وفي رواية أخرى: «القُذّة بالقُذّة، وشبراً بشبر، وذراعاً بذراع» والقُذّة هي الريشة.

٢ ـ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار؛ وكان أول من سيب السوائب، وبحّر البحيرة» رواه البخاري، ومسلم، وأحمد عن أبي هريرة.

٣ ـ «إنّ الله ـ عز وجل ـ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ فجاء منهم الأحمر، والأسود، وبين ذلك؛ والسهل، والحزن، والطيب، والخبيث» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

٤ ـ «خلق الله آدم، وطوله ستون ذراعاً؛ ثم قال: اذهب، فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك؛ تحيتك، وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك، ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم؛ فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» رواه البخاري في صحيحه.

٥ ـ «كلكم بنو آدم، وآدم من تراب، ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» رواه أبو بكر البزار في مسنده.

٦ ـ «الناس بنو آدم خلق من تراب» رواه الترمذي، وحسنه البيهقي.

٧ ـ «أيها الناس، إن ربكم واحد وإنّ أباكم واحد؛ ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي؛ ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى» رواه البيهقي.

٨ ـ «إنّ الله خلق آدم، ثم مسحَ ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريّة: فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح على ظهره، فاستخرج منه ذرية: فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل: يا رسول الله، ففيمَ العمل؟! فقال رسول الله «ﷺ»: إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله الله النار» رواه أبو داوود، والترمذي.

٩ ـ «عن عدي بن حاتم الطائي قال: أتيت رسول الله «ﷺ»، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عديّ، إطرح عنك هذا الوثن؟ قال: وسمعته يقرأ سورة براءة: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله»، فقلت: يا رسول الله، لم يكونوا يعبدونهم!! فقال عليه السلام: أليس يحرمون ما أحلّ الله، فيحرمونه؛ ويحلّون ما حرّم الله، فيستحلونه؟ فقلت: بلى قال: فذلك عبادتهم» رواه الترمذي في سننه.

١٠ ـ «عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي «ﷺ» بالمدينة ـ وهو يتوكأ على عسيب ـ فمرّ بنفر من يهود، فقالوا: لو سألتموه؟ فقالوا: حدثنا عن الروح؟! فقام ساعة، ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» رواه البخاري في صحيحه.

١١ ـ «الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت؛ والعاجز من أتبع نفسه هواه، وتمنّى على الله». رواه ابن ماجه، والحاكم.

١٢ ـ «إن أكثم بن صيفي لما بلغه خبر الرسول «ﷺ»: انتدب رجلين. فأتياه، فقالا: من أنت؟ وما أنت؟! فقال: أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله؛ ثم تلا عليهما هذه الآية: «إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان» فرجعا إلى أكثم بن صيفي؛ فلما قرءا عليه الآية. قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن

مساوئها؛ فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا فيه أذناباً» رواه ابن كثير في تفسيره.

١٣ ـ «إنيّ حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا» حـديث قدسي.

١٤ ـ «ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة» أخرجه البزّاني من حـديث ابن عباس بسند صحيح.

١٥ ـ «إنّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه، لم يفلته» رواه الشيخان، والترمذي.

١٦ ـ «مَن آذى ذميًا، فأنا خصمه» رواه العجلوني في كشف الخفاء.

١٧ ـ «إلا من ظلم معاهداً، أو أنقصه من حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة» رواه العجلوني في كشف الخفاء.

١٨ ـ «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته إلاّ حرّم الله عليه الجنة» رواه مسلم في صحيحه، والنووي في رياض الصالحين.

١٩ ـ «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم، وينصح إلاّ لم يدخل معهم الجنة» رواه البخاري مسلم في صحيحه، والنووي في رياض الصالحين.

٢٠ ـ «من ولي من أمر أمة محمد شيئاً، فولى رجلاً، وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله، ورسوله» رواه البخاري، ومسلم.

٢١ ـ «يا محمد، لو سلكوا كل طريق، واستفتحوا كل باب ما قبلت منهم إلاّ أن يؤمنوا بك» حـديث قدسي.

٢٢ ـ «اللهم، أنت ربي؛ لا إله إلاّ أنت؛ خلقتني وأنا عبدك؛ وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت؛ أعوذ بك من شر ما صنعت؛ أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت» رواه البخاري.



ثبْت المراجع

مراجع التفسير:

١ ـ ابن الجوزي ـ تفسير زاد المسير.

٢ ـ ابن العربي ـ تفسير أحكام القرآن.

٣ ـ ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم.

٤ ـ أبو حيان ـ تفسير البحر المحيط.

٥ ـ أبو السعود ـ تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.

٦ ـ الألوسي ـ تفسير روح المعاني.

٧ ـ الخازن ـ تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل.

٨ ـ الصابوني ـ تفسير مختصر ابن كثير.

٩ ـ الصاوي ـ تفسير الجلالين ـ الحاشية.

١٠ ـ الطبري ـ تفسير جامع البيان عن تأويل القرآن.

١١ ـ الرازي ـ تفسير مفاتيح الغيب «التفسير الكبير».

١٢ ـ القرطبي ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن.

مراجع الحديث

١ ـ البخاري ـ صحيح البخاري.

٢ ـ الترمذي ـ سنن الترمذي.

٣ ـ العجلوني ـ كشف الخفاء.

٤ ـ مسلم ـ صحيح مسلم.

٥ ـ النووي ـ رياض الصالحين.

المراجع العامة

١ ـ ابن تيميـة ـ السياسة الشرعية ـ الفتاوى الكبرى.
٢ ـ أبو حامد الغزالي ـ إحياء علوم الدين.
٣ ـ أبو الحسن النووي ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.
٤ ـ الإسنوي ـ نهاية السول شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول.
٥ ـ الآمدي ـ غاية المرام في علم الكلام.
٦ ـ أنور الجندي ـ الاسلام والحضارة الغربية.
٧ ـ جون فليفر ـ الله يتجلّى في عصر العلم.
٨ ـ سعيد أيوب ـ شيطان الغرب سلمان رشدي.
٩ ـ سعيد حوّى ـ الله.
١٠ ـ الشوكاني ـ إرشاد الفحول.
١١ ـ علي محمود عبد الحليم. . الإسلام والحضارة.
١٢ ـ غازي عناية ـ فصل الدين عن الدولة ـ جاهلية الديمقراطية ـ أسباب النزول القرآني.
١٣ ـ الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك.
١٤ ـ محمد أبو زهرة ـ محاضرات في النصرانية.
١٥ ـ محمد الغزالي ـ قذائف الحق.
١٦ ـ وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحـدى.
١٧ ـ مجلات: ريدرزاديجست ـ العربي ـ هيرالدناسيونال.

فهرس المحتويات

إساءة الحضارة الرأسمالية

والشيوعية إلى الله



فهرس المحتويات